اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٢٩٢]

شىء من الخوف

طبعة خاصة بدولة الإمارات العربية المتحدة

وزارة الثقافة وتنمية المعرفة

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
سعيد عبده مصطفى

سلسلة اقرأ
صدر العدد الأول
سنة ١٩٤٣

تصميم الغلاف
هاجر محمود

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكتروني بدار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – جمهورية مصر العربية

أباظة، محمد ثروت إبراهيم الدسوقى، 1927 – 2002.
شىء من الخوف/ تأليف ثروت أباظة.
– القاهرة: دار المعارف، 2016.
176 ص، 16.5 سم. (اقرأ، 292)
طبعة خاصة بدولة الإمارات العربية المتحدة
تدمك 9 8334 02 977 978.
1 –القصص العربية.
(أ) العنوان.
تصنيف ديوى: 813
رقم الإيداع: 7550/ 2016
رقم أمر التشغيل: 1/2016/12
رقم الكونجرس: x-840170-01-2

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

تمت الطباعة بدعم من
مؤسسة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان
للأعمال الخيرية والإنسانية

اقرأ

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طه حسين

دار المعارف

أحلام شهرزاد – العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

ثروت أباظة

شىء من الخوف

(١)

خالجه نفس الشعور الذى يخالجه كلما ركب القطار فى طريقه إلى القاهـرة. كان يتحرى دائمًا أن يتخذ مكانه بجوار النافذة لا يرفع نظره عن الحقول المنبسـطة المترامية الأطراف لا يحـد الحقل إلا حقـل مثله، وإن تباينت أنـواع المزروعات واختلفت.

وكان يشـعر دائمًا أن هذه الأرض جميعها ملكه وأنه نبتة منهـا ولكن نبتة خالدة باقية لا تحصد ولا يعاد زرعها، وإنما هى نبتت منذ ملايين السـنين ثم بقيـت. كان يخيل إليه أنه يعرف أغوار هذه الأرض وأنه كان فى يوم ما فى داخلها تحنو عليـه أعماقها وتدفئه حناياها ويمده بالسـقيا ماؤها حتى إذا انفجر إلى السطح كان هواء هذه التربة هو الذى يمده بالحياة. لم يكن هذا الشـعور يخالجه وهو فى قريته فهى أضيق من أن تتسـع لهذه الفكـرة وإنما كان يحس بها دائمًا إذا ما انفسـح أمامـه الوادى وانطلقت عينه إلى ما لا نهاية من الأرض حينئذ

كانت هذه المشـاعر تثب إلى نفســه خفيفة فى أنحاء شتى من كيانه فلا يدرى مأتاها.

وكان يخيل إليه أنه فلاح من هؤلاء الفلاحين الذين يعملون فى الأرض ثم ما تلبث هذه الفكرة أن تنداح فى وعيه، فإذا هو يحــس أنه هو جميع هؤلاء الفلاحين، فهو الذى يدرس القمح وهو الذى يحصده، وهو هو نفســه الذى يــذروه. أو هو الذى يجمــع القطن وهو الذى يســير خلف الأنفــار وهم يجمعونه وهو هو نفســه الذى يفرز القطن وينقيه من شوائبه. وما تلبث أفكاره ومشـاعره أن تضرب به فى أغوار الزمن فيحس أنه هو نفســه الذى زرع هــذه الأرض منذ بدأت هــذه الأرض تعرف نفســها كمنتجة للزرع، وحين لم تكن هذه الأرض شيئًا إلا أن تحمل الإنســان كان يخيل إليه أنه هو إنسان حملته لم تحمل قبلــه أحدًا. كان يخيل إليه أنه هو أول من قدم إلى هذه الأرض من البشر فهى لم تعرف قبله أحدًا، ولا عرف هو قبلها أرضًا.

فهو يرى نفســه حينًا واقفًا فــى أرضه هذه.. أرضه جميعًا لا يقصد قطعة معينة منها، ويرى رمســيس يشيد أمجاده هنا علــى هذه الأرض ويخيــل إليه أنه كان فيما مضــى من أزمان جنديًا من جنود رمسيس، أو هو جندى من جنود سيزستريس

أو هــو ملقى فى الحديد والقيود حــول يديه وقدميه فى أزمان قمبيز. ثم هو يحس الحديد يحطم واســم الإسكندر يذيبه عن أقدامه وســواعده. ثم يمضى مع نفسه هذه الهائمة فى ملكوت التاريخ، فيرى كليوباترا وقيصر ثم يرى أنطونيو. وحين يفرغ التاريخ من القوى الباطشــة تتهدى إليه الرسالات من السماء، فيرى نفسه ساعيًا وراء موسى على هذه الأرض نفسها. ثم يرى نفســه معذبًا بالمسيحية سعيدًا بها فى وقت معًا. ثم ينتهى به الأمر مع عمرو بن العاص مســلمًا مؤمنًا ســعيدًا بروحه وعقله وجسمه جميعًا. ثم يطوح به التاريخ فى جذبة قوية رائعة إلى هذا المســتقبل القريب القريب حين هو تلميذ فى كتاب القرية يجرى بــين دهاليز الكتاب الضيقة حافيًــا ينتعل التراب فى الفنــاء الضيق مع زملاء وزميــلات. أما الزمــلاء فهم أصدقاء اليوم، وأما الزميلات فإنهن زوجته وزوجات أصدقائه.

عجيبــة هى الأيام فى تنقلها وئيدة الخطو ســريعة العدو. تمشــى كما تدور الأرض فلا يحس بهــا ولكنها تقلب الحياة تقليبًــا فتومض الشــيب فــى الــرءوس وتذرو الغضــون على الجباه وتنفث التجاريب فى العقول فتحيل الســذاجة الناعمة الشــفافة حرصًا معتمًا كئيبًا، فإذا النفس التى كانت مشــرقة

واضحة المعالم تغدو ملتوية المسالك خبيثة.. ولا جناح عليها ولا تثريب فإنها تواجه زمانًا كثير المسالك الملتوية خبيثًا يصيب من حيث يأمن صاحبه.. أين الأيام الخوالى؟ أين أيام كنت فيها طفلاً لاهيًا؟ ما الذى جعلنى أذهب إلى الكتاب؟ لا ليس أبى.. إنه أنا.. لماذا.. لست أدرى.. كنت ألعب فى الساحة التى تنفسح أمام الجامع.. تلك التى ما زالت على حالها فى الدهاشنة لم يغيرها الزمن.. لماذا لا يغير الزمان الأرض؟.. كنت ألعب هناك بالكرة.. أى أنا كنت إذ ذاك؟ أترانى كنت ذلك الأنا الذى صاحب رمسيس أم كليوباترا أم فمبيز أم موسى أم عيسى أم محمدًا، أى أنا فى هؤلاء كنت.. كنت ذلك الأخير.. كنت بجسمى هذا الباقى الذى لم يتغير.. وهل تغيرت الأجسام بين كل هذه الأزمان؟ لا أدرى.. كل الذى أدريه أننى كنت أنا بذراعى هذه ورجلى هذه وكانت صغيرة إذ ذاك وكنت ألعب مع فايز بك.. نعم كان بك منذ ذلك الحين البعيد.. أنا لم أعرفه طوال حياتى إلا فايز بك يبدو أن البكوية ولدت معه يوم مولده بل لحظة مولده، ولعل القابلة أخرجتها من بطن أمه قبل أن تخرجه هو .. إنه بك منذ ذلك الحين منذ نحن أطفال نلهو لم نمثل للتعليم بعد. كنت أنا وهو فقط وكنا

فــى انتظار أن يأتى عبد الصادق ولكنه تأخر عنا ولم نكن نعلم فيــم تأخره وكنــا نريد أن نلعب الكرة ومــا كان لنا أن نلعبها دونه. ورأينا الناس يقبلون على الجامع فرادى وجماعات وكنا نعرف أنهــم يدخلون إلى الجامع ليصلــوا.. ولكن كيف كانوا يصلــون لم نكن ندرى لا أنا ولا فايز بك ونظرنا إلى الناس وهم يتقاطرون على الجامع ويخلعون نعالهم، وقليل هم الذين كانوا يخلعــون أحذيتهم. ونظرت إلى فايز بك ونظــر إلى ولم نتكلم وإنما قصدنا إلى باب الجامع فخلع هو حذاءه ولم أخلع أنا شيئًا وخطونا العتبة، فإذا نحن فى الجامع. ووجدنا قومًا يميلون إلى اليمين ليدلفوا من باب فملنا معهم ورأيناهم يغسلون وجوههم وأيديهم وأرجلهم ورءوســهم من بئر هناك فرحنا نفعل مثلما يفعلــون، ثم غــادروا إلى حرم الجامع مرة أخــرى فتبعناهم، وما هــى إلا دقائــق حتــى تقــدم الشــيخ جابر عبــد التواب رحمه الله.. لقد خلفه اليوم ابنه الشيخ عبد التواب جابر أصبح اليوم مأذون القرية وخطيب المسجد فى آن واحد. لا أستطيع أن أنسى النكتة التى أطلقها عليه الولد عتريس بن عبد الصادق.. خيبــة الله عليــه أصبح شــريرًا.. ويلى أخاف أن يســمعنى.. يــا لى من أحمق! إننى لا أتكلم إنــى أفكر.. أأخاف منه حتى

وأنا أفكـر.. لم أثار الرعب فى القريـة عتريس عبد الصادق؟ ولكنه كان مع ذلك طفـلاً وكان يقول النكت فى بعض الأحيان وكان يضحـك أتراه يضحك الآن؟ أتراه حين يقتل يضحك؟ كان وهو طفل كثير الضحك.. كان يشاهد الشيخ عبد التواب جالسًا دائمًا فى دكان عبد الملاك البقال.. ياله من خبيث ذهب إلى عبد الملاك وقال: أعطنى بقرش زيتونًا وبقرش جبنة بيضاء وبقرش حلاوة، وقام الشيخ عبد التواب وراءه امش يا قبيح والله لسوف أقول لأبيـك وأجعله يضربك بالمركوب وجرى عتريس يضحك هالعًا. واليوم أرى الشـيخ عبـد التواب يصيبه الهلع كلما ذكر أمامـه عتريس.. أيام تتقلب.. لم يكن الشـيخ عبد التواب هو الإمـام يوم دخلنا أنا وفايـز بك وإنما كان أبوه الشـيخ جابر وأم الصـلاة ورتل القرآن فى صوت جميل أخاذ ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ [سـورة الضحى: الآيات من ١ – ١١]. الله أكبر.

وفــى الصباح التالى كنت أنــا لم أنم بل ظللت أترقب الفجر حتى بزغ، وإذا أنا أجد نفسى فى كتاب الشــيخ عبد الكريم التهامى، وإذا فايز بك يرســل إلى الشــيخ عبد الكريم فى اليوم نفسه أن يذهب إليه فى السراى ليحفظ القرآن على يديه.

مرت بى فــى الكتاب أعوام قلائل، فإذ أنــا العريف ويوم توليــت منصبى هذا قدمت فاطمــة إلى الكتاب. ما كان أجملها يوم ذاك. طفلة وضيئة الطلعة مشرقة العينين بهيجة النفس، أنــا لا أراها حتى اليوم إلا كما كانت حينذاك.. جلباب أخضر زاه ووجه أبيض ناصع فيه ضياء ينبعث منه عينان فيهما صفاء

كصفاء العسل الأبيض وفى لونه أيضًا. وضفيرتان من الشعر الأسود اللامع من غير زيت.

وكنت العريف. فكانت تقرأ على.. وكنت أصحبها بعد أن ينتهى الكتاب. وكانت تقرأ وكنت أمسك أنا لها اللوح. لا أنسى يوم غرقت حين كنا نمشى بجانب النهر. كانت هى بجانب النهر وكنت أنا بجانبها وزلقت قدمها فإذا هى جميعًا فى النهر. ولم أكن أعرف العوم. لماذا لم أكن أعرف العوم؟.. لا أدرى وإنما لم أتردد.. ألم أكن أخاف يومذاك فما لى اليوم أخاف من عتريس.. كانت نفسى على سجيتها ولم أكن أقدر حياتى قدرها، ولم تكن لى فؤادة أخاف عليها أن أموت فلا تجد لها أبًا.. أترانى كنت شجاعًا ثم صرت جبانًا؟. أم ترانى كنت جبانًا ولكنى لم أفكر؟.و كيف أكون جبانًا ولا أفكر وهل الجبن إلا تفكير.. رميت بنفسى فى النهر وأنا لا أعوم وفى لحظة خاطفة امتدت يدى إلى الصفصافة التى تحنو على النهر.. لكم أحب هذه الصفصافة.. تشبثت بشعور الصفصافة المتهدلة إلى مياه النهر ومددت رجلى بأقصى ما تستطيعان أن تمتدا وتشبثت فاطمة بقدمى ورحت أشد جسمى إلى الأرض شيئًا فشيئًا وفى بطء شديد وفى حرص أشد أن تفلت يدى شعور

الصفصافـــة أو تفلت فاطمة قدمـــى حتى بلغت الأرض ومددت يدى إلى فاطمة وخرجت إلى الأرض واســـتلقت عليها.. كم هى حبيبـــة هذه الأرض. ومـــرت أعوام الكتـــاب. وختمت حفظى للقرآن وخرجت إلى الحياة.

ظـــل فارغًا فـــترة طويلة بعد أن ترك الكتـــاب. كان يحن إلى فاطمة. ولكـــن كيف له أن يذهب إليها. ولم يكن الحنين وحده كافيًا أن يشـــغل وقته. وفى يوم عزم على أمر فما لاح الفجر من اليـــوم التالى حتى خرج إلى غيط أبيه وبدلا من أن يشـــرف على الرجال وهم يفلحون الأرض ربت كتف عبد الجليل أبو سعفان.

– عبد الجليل.

– أفندم يا سى حافظ.

– هل عندك فأس أخرى؟

– لماذا؟

– هل عندك فأس أخرى؟

– نعم.

– اذهب فهاتها.

– وهذه ما لها.

– سأستأجرها منك.

– أنت.

– نعم.

– تفلح الأرض معنا.. أنت يا ســى حافظ يا ابن الحاج خالد أنت؟!.

– أعطنى فأسك ولا تطل.

وقالوا مجنون، ولكن ما شــأنه هو أن يقولوا واســتمر عامًا وبعض عام حتى جــاء فايز إلى القرية، فذهب إليه وتحادثا.. رأى فى حديثه نــورًا جديدًا يريد أن يروده.. كان لا بد له أن يعلم علم فايز. لقد ذهب فايز إلى المدرسة فى المدينة فما له هو لا يذهب.

– آبا. أريد أن أذهب إلى المدرسة.

– قل ماذا تريد من مال ومع السلامة.

– غدًا أذهب.

– غدًا تذهب.

وكان هــذا هــو فراقه عن الفــأس. ولكنه إن فــارق القرية فســيفارق فاطمة أيضًا.. كيــف يســتطيع أن يفارقها. لم يكن يراهــا إلا قليلا، ولكن أنفاســها فى القريــة، فهو يعيش فى أجوائها. فكيف يفارق القرية. ولكن لا بد له أن يعلم علم فايز.

فكيف على الأقل يبلغ فاطمة أنه مسـافر فى غده آخذًا طريقه إلى المدينة وإلى العلم.

ذهب إلى عبد الصادق فى بيته.

– عبد الصادق.

– ماذا؟

– أريد أن تأتى معى لنتمشى.

– عند الصفصافة طبعًا.

– هل عندك مانع؟

– مللت الصفصافة.. تعـال نذهب إلى الناحية الأخرى من القرية هناك عند النخيل.

– إلا اليوم.

– ولماذا اليوم؟

وتردد قليلًا ثم قال:

– لا أدرى إلا أننـى أريد أن أذهب إلى الصفصافة.. لا أدرى ألا تحس فى أحيان معينة أنك مشتاق إلى مكان معين.. أنا الآن مشتاق إلى الصفصافة.

– أمرك نذهب إلى الصفصافة.. نذهب إلى الصفصافة..

– يقطع الـ..

وقبل أن يكمــل الكلمة كان حافظ قد وضع يده على فمه فى خوف.

– اسكت.. وهيا.. ولا تطل الكلام.

وجلسا عند الصفصافة. وظل حافظ صامتًا، ولكن عبد الصادق لم يسكت..

– لقد أردت أن أجىء معك لأخبرك خبرًا يفرحك.

وقــال حافظ وعينــه إلى طريق القرية وذهنــه إلى بيت فى القرية لا يريم عنه.

– هه.

– لا.. اصــح واسمع كلامى وأحســن سمعه.. وإلا قمت والله وتركتك وحدك أنت والصفصافة.

وانتفض حافظ فى ذعر.. فإنه يحتمل كل شــىء إلا أن يقوم عنه عبد الصادق الآن فقد كان يريده بكل خلجة من مشــاعره، وبكل دقة من قلبه.

– لا.. تقم؟.. وهل هذا يصح.. أنا أسمعك.. أسمعك تمامًا.

– ألا تعرف أنى فكرت فى الزواج.

وانتبه حافظ إلى صديقه تمامًا.

– ماذا.

– نويت أن أتزوج نبوية.

– نبوية بنت حسنين العكر؟
– هى نعم بنت حسنين العكر.
– وأبوها.
– ماله أبوها؟
– مجرم!
– تخافه الجهة كلها.
– ولكنه مجرم!
– إنه رجل.. ليس مثله بين الرجال.
– إنه مجرم.
– اذكر لى اسما واحدًا لا يخاف حسنين العكر.. حتى فريد باشا يخافه.
– الإجرام ليس رجولة.
– فما الرجولة؟
– ألا تخاف أن يصبح أولادك مجرمين.
– يا ليت.
– ستندم.
– لا تخــف.. فليكونوا هــم كجدهم، ولا شــأن لك. إننى حينئذ سأكون أسعد أب فى الدنيا.
– وإذا أغضبت نبوية. ألا تخاف أباها؟

– ولماذا أغضبها؟

– بين الزوج والزوجة لا يخلو الأمر من الغضب.

– لن أغضبها.

– أخاف عليك من هذا الزواج!

– يا أخى لا تخف.. قل لى مبروك.

وقبل أن يقول حافظ شيئًا رأى فى أفق الطريق القريب جمعًا من الفتيات يقترب إليه هو وصديقه فظل نظره متعلقًا بالطريق، فى حين راح عبد الصادق يهزه.

– مالك.. مالك ساكتًا.. ألا تقول لى مبروك؟

– هه.. آه.. نعم.. صحيح.. مبروك.

وران الصمت بين الصاحبين، حتى اقترب سرب الفتيات وكانت فاطمة بينهن. أقبلن إلى الترعة يملأن منها الجرار. وكانت الجماعة قريبة من حيث جلس الصديقان وصاح حافظ.

– ألم تعرف يا عبد الصادق.

– ما لك تصيح هكذا.. أرأيتنى قد فقدت السمع.

– أنا مسافر غدًا إلى المدينة وسأبقى هناك.

– عجيبة.

–سأذهب لأتعلم فى المدرسة.

– ولماذا لم تقل لى هذا الخبر المهم من ساعة أن رأيتك؟ وعلى كل حال لماذا تصيح؟

– لن أنساك أبدًا يا عبد الصادق.

– لن تنسانى.

– لابد أن تأتى إلى هذه الصفصافة دائمًا يا عبد الصادق.

– أنا! حد الله بينى وبين الصفصافة.

– إياك أن تترك يومًا دون أن تأتى إلى الصفصافة.. أنت تعرف كم هى غالية عندى يا عبد الصادق.

– وأنا ما لى!

ورأى حافظ إجابة كلامه فى عينى فاطمة وفى ابتسامتها.

فراح يصيح:

– أحبك.

صرخ عبد الصادق.

– ماذا؟

– أحبك يا عبد الصادق.

– أحبتك العافية..

– أنت حبيب العمر يا.. عبد الصادق.

– حفظت.. والله أخ.. أخ والله ياسى حافظ.

– أريد أن أقبلك يا عبد الصادق.

واحمر وجه فاطمة وقال عبد الصادق:

– الله يبقيك.. ولكن يعنى.. لماذا؟

– لأنك ستتزوج.. ادع لى أنا أيضًا أن أتزوج يا عبد الصادق.. تعال أقبلك.

– إنك منذ لحظة لم تكن تريد أن تقول لى مبروك.. مبروك لم أنلها منك إلا بطلوع الروح، والآن تريد أن تقبلنى.. ربنا يجعل العواقب سليمة.

وكانــت فاطمة قد ملأت الجرة بعد أن نظفتها مرات كثيرة حتــى ضاقت بها زميلاتها وأرادت فاطمة أن تنصرف، فألقت إليه نظرة فيها فهم وفيها ضحكة عميقة فرحانة متألقة. وقال حافظ صائحًا:

– مع السلامة يا عبد الصادق.

– ماذا.. وهل أنا المسافر أو أنت؟

– أقصد أفوتك بالعافية.. ولا تنس أن تزور الصفصافة.

– والله لن أزورها أبدًا.

– كل يوم يا عبد الصادق.. كل يوم.. إياك أن تنسى.

– ولا يــوم وحياتك.. إنى أجــىء معك لأجل خاطرك فقط. أما أن أجىء وحدى فهذا هو المســتحيل.. وعلى كل أنا سأكون مشــغولا بالزواج فى الأيام الآتيــة.. الله!.. معنى هذا أنك لن تحضر فرحى.. هه ألن تحضر فرحى؟.

وكانــت فاطمة قــد انصرفت وكانت عينــا حافظ متعلقتين بالبقية الباقيــة البادية من خيالهــا، وكانت روحه جميعها ترافقهــا، وكانــت أذنــاه منصرفتــين عــن عبد الصــادق كل الانصراف.. لم يعد يسمع شيئًا.. لا شىء.. لا شىء أبدًا.

وسافر فى غده شابًّا أسمر اللون، قوى الملامح، بارز الجبهة. عميق النظر، أسود الشعر فاحمه غزير الحاجبين، رقيق الشفتين، مفتول الذراعين، ذا مشية ثابتة إلى المستقبل فى تفاؤل وإصرار، لا هو بالطويل البالغ الطول ولا هو بالقصير الذى تأخذه العين. شابًّا فى مطالع الشباب يبدأ تعليمه فى المدارس، فهو متفتح الذهن بما تعلمه من قرآن، متفتح القلب بحبه هذا الذى ينتظره فى القرية. قصد إلى المدرسة فى هدوء مطمئن ووجد رفاقه أو الغالبية العظمى من رفاقه فى مثل سنه إن لم يزيدوا فى أعمارهم عليه.. وواصل تعليمه حتى نال شهادة الكفاءة وعاد إلى القرية. وجد فايز بك رفيق ملعبه قد تزوج من قريبة له وأنجبا ابنهما طلعت ووجد صديقه عبد الصادق قد تزوج من نبوية فولدت له عتريس. فلم يجد بأسًا أن يقصد إلى أبيه:

– آبا أريد أن أتزوج.

– اخترت أم أختار لك؟

– فاطمة بنت الحاج قاسم الطيب.

– ونعم ما اخترت يا ابنى.

وتزوجا. ولم يمكث بالقرية، وإنما اختار أن يعمل موظفًا بالقاهرة. لكم نعما بهذه الأيام التى قضياها بالقاهرة. وفيها أنعم الله عليهما بابنتهما الوحيدة فؤادة، فتمثلت الحياة جميعها لهما فى هذه الطفلة الصغيرة يهبان لها كل ما يستطيع الأب والأم أن يهبا واطمأنت بهما الحياة سنوات. سنوات قليلة ثم فجعه الدهر بموت أبيه. نظر إلى الحياة يومذاك فوجد نفسه يقف وحيدًا فى لقاء الدهر. ترك وظيفته وعاد إلى القرية.

كان فريد باشا قد مات هو أيضًا، وتولى فايز إدارة أعمال أبيه ووجد الفلاحين يشكون من فايز ومن سوء معاملته لهم. ولكنه لم يستطيع أن يقول قولهم. بل كان يسمع من كثير آخرين مديحًا لفايز لا يشوبه نقد ولا تقف به كراهية، وقد ظل حتى يومه هذا لا يدرى إن كان فايز يستحق المديح أم هو يستحق الكراهية.

وعاش حافظ فى القرية سنوات طويلة، وكبر عتريس، فإذا هو يرث الإجرام عن جده. ويبدأ صيته فى هذا الميدان يعلو ويرتفع وحينئذ قطع حافظ ما بينه وبين عبد الصادق. ولكن

عبد الصادق لم يقبل هذه القطيعة، فهو يزور «حافظ» بين الحين والآخر، وحافظ يستقبله مبالغًا فى الحفاوة والإكرام، ولكنه مع ذلك لا يرد زيارته. وتكبر فؤادة، فهى شابة فى ريق العمر، أخذت عن أمها إشراقة نفسها وإيمانها المطلق بالله، وأخذت عن أبيها طيبة نفسه وسماحة مشاعره. ولكن شيئًا غريبًا آخر تسرب فى هوادة وإصرار إلى أخلاقها. لم يكن حافظ يستطيع تعليله أتراه الكتب التى تصر على قراءتها ما أمكنتها الفرصة. أم تراه ذهابها فى كثير من الأحيان للست تفيدة زوجة فايز بك التى كانت تجد فيها عقلية مثقفة وحديثًا عذبًا لا يشابه حديث الأخريات من بنات القرية. لقد أحبتها تفيدة منذ كانت فؤادة طفلة تلهو مع ابنها طلعت. وحين منعت السن فؤادة أن تلعب مع طلعت أصبحت تزور تفيدة وتجالسها إن لم يكن فى كل يوم من أيام الأسبوع ففى أغلب أيامه.

كانت فؤادة سمراء ما تكاد تلحظ، سوداء الشعر غزيرته ذات عينين واسعتين نفاذتين تخترقان الحياة فى فهم وذكاء، وكانت قوية الأسر لا يستطيع من يراها مرة إلا أن يذكرها دائمًا، وكانت أقرب إلى الطول منها إلى القصر أقرب إلى

النحافة منها إلى السمن. تحب أن تضحك ولكن قليلا ما كانت تجد شيئًا يضحكها.

فهى تبقى على ابتسامة حلوة تعلقها بشفتيها الرقيقتين وكأنما هى تتهيأ للضحك عند أول بارقة تلوح بما يستحق الضحك، تسربت إلى أخلاقها من حيث لا يدرى أبوها ولا يدرى أحد، عناصر من العناد والإصرار، فهى إن أرادت شيئًا حشدت كل قواها لتناله. لم يكن أبوها كذلك، هو تعود ألا يريد شيئًا فإن أراد شيئًا، ونادرًا ما يريد، فهمسة خجلة مترددة إن أفادت فبها ونعمت، وإلا عادت الهمسة تدوى فى داخله، وينتهى بها الأمر أن تذوب مع الأمنيات المستحيلة التى قد تدور فى النفس ولا تصل إلى اللسان. وأما أمها فملقية أمرها كله على الله، فما يأتى به الله خير، وما يمنعه عنها الله فهو شر، والحياة – كما تحيا – جميلة لا تريد منها أكثر مما تعطى،و الحمد لله الواحد الخلاق فيما أعطى وفيما يمنع. من أين تسرب هذا العناد إلى نفس فؤادة. من أين؟

ومع صوت القطار ظلت كلمة من أين تدوى فى مشاعر حافظ فتهز كيانه جميعًا، وكان القطار يوشك أن يصل إلى القاهرة

فهو يوهن من سـيره الحثيث ويهن معه دوى من أين فى نفس حافظ حتى يصمت القطار، ويفرغ حافظ إلى القاهرة وينزل من القطار أهم ما يفكر فيه أن يشترى بعض الكتب لفؤادة وخمارًا للصلاة طلبته منه فاطمة..

❑❑❑

(٢)

كانت فاطمة قد تعـودت منذ تزوجت «حافـظ» أن تصلى ركعتيـن لله دائمًـا مـع كل صلاة فجـر أن يفتح الله الأبـواب أمام زوجهـا، وأن يمنع عنه كل مكروه. فإذا سـافر حافظ فالركعتان أربع ركعات أن يعود زوجها إليها بالسلامة. فزوجها عندها هو الحياة كل الحياة.

فمنذ ذلك الحين البعيد الذى لقيته فيه بكتاب القرية وهى تحبـه. وما زالـت تذكر ذلك اليوم حين أصـر أبوها أن تتعلم ابنته القـرآن وأرادت أمها يومذاك أن تعارضه، فإذا هو يقول فى هدوء:

– ستتعلم القرآن إن شاء الله.

وكانـت هذه الكلمـة وحدها كافية لأن تأخـذ طريقها فى صبيحة اليوم التالى إلى كتاب القرية، كادت تبكى أول الأمر. ولكن ذلك الشاب الأسمر ذا الابتسامة الحنون الطيبة استقبلها فى تشـجيع وأخذ منها اللوح وخـط لها الدرس الأول فى غير زهـو بعملـه ولا اسـتكبار. أقبلت وجلة فى صـدر النهار ثم

متحمسة فى آخره. وأصبح الكتاب وذلك الفتى الأسمر هو كل شىء فى حياتها منذ ذلك الحين إلى سنوات طويلة. ثم انفرد الفتى الأسمر بحياتها. ولكم تستغفر الله أنها كانت تفكر فيه دون أن يربطها به رباط شرعى فهى تصلى أن يمحو الله عنها هذه الخطيئة، وهى تبالغ فى الصلاة والاستغفار حين تذكر يوم انزلقت قدمها فوقعت فى النهر، إنها يومذاك لم تكن تفكر فى كلام الله الذى تتلوه، وإنما كانت تفكر فى هذا الفتى الأسمر الذى كان يمسك لها اللوح.

وكانت تدمع عيناها فى صلاتها وهى تطلب المغفرة، وكانت واثقة كل الثقة أن قدميها لم تنزلقا، وإنما الملائكة هم الذين شدوا قدمها إلى النهر جزاء وفاقًا لها عن نسيانها جلال كلمات الله، وتفكيرها فى ذلك الفتى الذى يمسك اللوح. كم هم رحماء هؤلاء الملائكة لم يغرقوها فى ذلك اليوم، وقد كان من حقهم أن يغرقوها، وإنما هيأوا لها هذا الفتى الأسمر لينقذها ويعيدها إلى الحياة. ومنذ ذلك الحين تعودت فاطمة إذا قرأت القرآن أن تنسى كل شىء إلا القرآن الذى تقرؤه. كما تعودت أن تستغفر الله كلما ذكرت «حافظ»، وهكذا كان أبوها كثيرًا

ما يسمعها تطلق هذه التنهدة العميقة وتعود بعدها فى صوت خاشع متخاضع فيه كثير من الرجاء، وكثير من الروحانية أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم. وكثيرًا ما كان أبوها يقول ياه يا بنتى! وأى ذنب اقترفته حتى تطلبى الغفران بكل هذا الخشوع ويبتسم. كان طيبًا أبوها.. يعرف أن ابنته نقية كماء السماء عفيفة كالملائكة فما كان يزيد على ابتسامة يطلقها فى حنان ويعود إلى تسبيحه مرة أخرى خاشعًا هو الآخر مؤمنًا أعمق الإيمان.

ولكنها مع ذلك لا تستطيع أن تنسى ذلك اليوم الذى أشرفت فيه على الغرق – حين غمرها الماء ثم صعدت إلى الهواء فلقفت أنفاسًا وراحت تمد يديها دون أن تدرى إلى أى شىء تمد هاتين اليدين، ثم غمرها الماء، فهى فى هلع وصعدت لتختطف من الهواء بضعة أنفاس أخرى ثم يغمرها الماء. لم تكن تفكر فى هذه اللحظات فى شىء، إلا أنها كانت كلما صعدت إلى سطح الماء تذكرت أن تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولكن جهلها بالعوم لا يمهلها أن تقول شيئًا، فهى ما تلبث أن تعود إلى الغمرة مرة أخرى ولا يعى ذهنها شيئًا. حتى ارتطمت يداها بشىء فى الماء ما لبثت أن

تعلقها به كان قدميه. وتشبثت بهما وصعد فمها إلى الهواء وقالت أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، ولكنها فى هذه المرة كانت تحمل معنى العودة إلى الحياة بعد أن كانت تريد أن تقولها فى وداع الحياة.

وحين استقر جسمها على الأرض أحست أنها تكره ذلك الفتى الذى أنقذها، فقد كانت واثقة فى لحظتها تلك أنه هو وحده السبب فى غرقها وأنه لولاه ما ألقى بها الملائكة إلى براثن التهلكة، قليلا ما أحست بكره فتاها، وما أضأل الكراهية التى أحست بها نحوه، كغلالة من دخان لا تحجب ولا تعتم ولا تكاد ترى. قليلا ما أحست بهذا الكره، ثم أنا المخطئة، إنه أنا التى كنت أفكر فيه وليس هو. أحببته كما كنت أحبه. ولم أزد فما كان ثمة فى قلبى مكان لزيادة، كنت أحبه بعد الله وبعد النبى وقبل.. ولماذا المقارنة كنت أحبه بكل ما أعرفه من معنى الحب. لكم فرحت وهو يلقى إلى خبر سفره جاعلا عبد الصادق طريقه إلىّ. ما الذى جعل اسمه عبد الصادق أنا لا أحبه. فإن الذى يلد عتريس ليس خليقًا أن يحب أبدًا. كيف استطاع هذا الإنسان الذى يأتى إلى بيتنا والذى يحاول أن يضحك دائمًا ويمزح ويقهقه، كيف استطاع

هذا الإنســان أن يلد كل هذا الهول الــذى يملأ القرية والقرى المحيطــة بها بل والبعيدة عنها أيضًا، أنا لا أخافه فأنا واثقة أن الله أكبــر منه وأقدر عليه من العبد ولكنى أكره هذا الخوف الــذى يلقيه فى قلوب الناس. أكره الرعب من غير النار وأكره الخشــوع لغير الله. وأكره السلاح الذى يسلطه على حياة الناس فحياتهم قلق ومشــقة وخوف. ولكن «عتريس» يســلط عليهم الخــوف كل الخــوف، فهم فى رعــب لا يتركهم، رعب دائم لا يتخلــى عنهم حياتهم جميعًا. كم كان حافظ ذكيا وهو يلقى إلىَّ الحديث عن طريق عبد الصادق، لقد فهمت زكية أم عليوة مــا كان يريده حافظ مــن حديثه، ما الذى جعل أباها يســمى عليوة وماذا أعجبها فى الاســم حتى تســمى بــه ابنها أيضًا، أصبح عليوة محاميًا. ولكنه لا يريد أن يترك الدهاشنة، بل هو باق بها ويذهب إلى البندر فى كل يوم. لكم يكره الشــيخ عبد التواب عليوة بن زكية أم عليوة! كان الشيخ عبد التواب قبل أن يصبــح عليوة محاميًا هو مفتى القرية لا ينازعه فى فتواه أحد واليــوم هبط عليه هذا المحامى لا يكتفى بالقضايا والإجرام بل يفتى فى الدين أيضًا. ألهذا السبب يكرهه؟. هل الكراهية شىء بســيط إلى هذا الحد، كيف يسمح الشــيخ عبد التواب لنفسه

وهو يحمل كلام الله، الله الرحيم الغفور، كيف يسمح لنفسه أن يسب عليوة للناس ويرميه لهم بالجهل والكفر والزندقة. هل الكفر والزندقة شـيء بسيط يرمى به الناس هكذا دون تفكير. فهمت زكية ما كان حافظ يريد أن يقول. خبيثة زكية، وكانت تبتسـم دائمًا كلما ذهبت إلى الصفصافة فـى موعدى اليومى. وكثيـرًا ما كانت تقـول وصية حبيب القلب. أنا شـاهدة على الوصيـة، وإذا قلت فى جد إنما أمـلأ الجرة ضحكت فلا يفلح جدى ولا تقطيبى أن يخفى شـيئًا ممـا أضمر. لماذا نحاول أن نخفـى الحب. فى حين أن الشـيخ عبد التـواب لا يحاول أن يخفى الكراهية. جميل هو الحب.. حب الله وحب النبى وحب الزوج ولكنه لم يكن زوجى حينذاك.

وحين طلب حافظ يدها من أبيها كان أبوها حريصًا أن يسألها رأيها، وسـأل وسكتت ثم ابتسـمت ثم أومأت أن نعم. وحين تزوجا وخلت بهما الحجرة وقبَّلها حافظ أومض فى ذهنها أن هـذا حرام ثم ما لبثت أن تذكرت أنـه زوجها وأن الحرام كل الحـرام ألا تطيعه إذا قبلها فأطاعت. وحين انتقلا إلى القاهرة امتلأ قلبها خوفًا. كيف تترك مهد حياتها جميعًا منذ الطفولة التى لا تعيها إلى البواكير الأولى من الصبا والكتاب و«حافظ»

وذكريات هواها وأباها وأمهـا وصديقاتها وجميع هذه القرية بمـن فيها من ناس. نـاس تعرفهم جميعًـا وكلمتهم جميعًا. تحية عابرة أو حديثًا طيبًا سـمحًا. وأولئك الصديقات اللواتى طالما طلبن منها أن تؤدى لهن خدمات. تلك الخدمات الصغيرة الحبيبـة إلى النفس تلك الأشـياء الدقيقـة الرقيقة فى حياة النـاس التى تزيد الصلات قربًا وتجعلهـا قوية متينة. تحب أولئك الصديقات اللواتى تركن لها أطفالهن ريثما يقمن بشـأن من شـىءون حياتهن المليئة بالعمل أو أولئك اللواتى سـألنها أن تشـاركهن فى خبز العيش تحبهـن أكثر من أولئك اللواتى أديـن لها هى الخدمات الصغيرة. كيف تترك هذا جميعه إلى القاهرة. ويلى من القاهرة واسعة سعة الدهر. ولكنها لى... لى أنا. كانت ضيقة ضيق اليـأس. وحيدة أحس الوحدة لأول مرة فـى حياتى. هناك فى القرية. فى الدهاشـنة كنت أجد الأنس مهما تكن الوحدة محيطة بى أما هنا فى القاهرة فأنا فى وحدة مهما تكن الجارات حوالى. أنا هنا فى جزء من بيت إن رفعت صوتى عن الخفوت قليلا أصاب كثيرًا من الآذان، ولكنه لا يصل إلى قلب أحـد. أما هناك فقد كانت نجـواى تبلغ إلى القلوب وإن لـم يصل منها إلى الآذان شـىء. وحيدة كنت فى القاهرة.

فما كنت أستشعر الأنس ولا الألفة ولا الاطمئنان إلا حين نلم بالقرية فى زيارة عابرة أو زيارة فيها شىء من المكث والقرار ثم جاءت فؤادة. ما أحلى فؤادة ماذا أفعل وهى فى كل يوم ذاهبة إلى الست تفيدة وتفهم أباها وتريد أن تفهمنى – إن الزيارة موجهة إلى تفيدة كأنى لا أذكر أيام كان طلعت طفلا، فكان لا يترك منزلنا منذ مشرق الشمس حتى يضمه بيته عند المساء كأنى لا أذكر هذه النظرات التى كانا يتبادلانها وهما يتلمسان طريقهما إلى الباب كل منهما يتعرف على شبابه فى عين الآخر. كنت أرى. وحين عرف كل منهما شبابه وكادت المعرفة تتوطد انقطعا كلاهما عن رؤية أحدهما الآخر أمام الناس. ولكنها تذهب إلى الست تفيدة. كم هى جميلة فؤادة وكم أخشى عليها، وماذا أقول لأبيها. لا أنسى يوم مولدها، أول مرة رأيتها. رأيت حبى لحافظ يتجسم أمامى فإذا هو حبى للحياة. هذه النظرات الذاهلة التى ملأت ما حولى أنسًا وهداية رأيت فى وجهها الله. لم لا؟ أليست الإنسانية كلها ناشىءة عن فؤادة وهل هنا آية أعظم من الإنسان. لقد خلق الله الكثير وأنزل الأديان ولكن آيته العظمى ما زالت هى الإنسان. سره الغامض وصرحه الضخم وبنيانه الذى لا يبلى فهو باق فى الدنيا وفى الآخرة لا ينتهى. كانت فؤادة حلوة كالأمل تحقق،

كابتسامة خالدة على وجه الزمن. وحين جئنا إلى القرية لم أشأ أن يقتصر تعليمها على الدين كما كان الشأن معى. فرحت ألح على كل ذى علم فى القرية أن يعلمها من علمه شيئًا. وأحبت القراءة. وأحبت المدرسة وأصرت على الذهاب إليها. أتراها تكلم طلعت فيما تقرأ؟ ماذا أقول لأبيها عن طلعت. لا بأس أن يتزوجها. أترانى لهذا أغمض عينًا كان من واجبها أن تتنبه. إنى واثقة بابنتى. بل واثقة بطلعت. ولا بأس به أن يتزوجها فحافظ وإن جهل مكان نفسه من أعيان الدهاشنة وإنى أرى فايز بك لا يستكبر مثلما كان أبوه يستكبر وأرى طلعت أكثر تواضعًا. وهل يعرف القلب كبرًا. لعله الشرف كل الشرف أن تحبه فؤادة وأن تتزوج منه. وهل هناك شرف أبعد أو أعظم من أن يلتقى حبان ويتناجى قلبان ويكتمل الهوى بينهما بزواج؟ – الزواج الشرعى الذى أراده الله يوم شرع الزواج هو الحب، الحب وحده الشريعة، ومراسم الزواج إعلان لهذه الشريعة أن تذيع بين الناس فلا يكون الزواج بغير حب. ألم يحتم الشرع رضاء الزوجة وطلب الزوج؟ فهو الحب إذن مهما تكن منابعه، قد ينبع عن العقل أو قد ينبع عن القلب وعن أى المصدرين يصدر يصبح زواجًا شرعيًا. هى تحبه. لم تقل، ولكن ما ذهابها إلى الست تفيدة كلما استطاعت إلى ذلك

سـبيلا أو كلما اختلقت إلى ذلك سـبيلا وهو يحبها. وإلا فما بقـاؤه فى البيت كلما ذهبت. نعم إنى أسـألها هل كان طلعت موجـودًا تجيب نعم سـريعة، وكأنها لا تفهم مـا أقصد إليه وتبحث فى سـرعة وفى ذكاء عن موضوع آخر. والعجيب أنها دائمًا تجد الموضوع الآخر لن أقول لحافظ شـيئًا. أأقول ظنونًا قد تصدق أو لا تصدق؟! أأثير مخاوف ومكامن القلق فى نفسـه مـن أجل أفـكار؟! إنما هى أفكار وهل تأكدت من شـىء وهل ثمة شـىء أتاكد منه؟ مجرد نظرات لعلـى رأيتها بآمال وبما أهفو إليه من مسـتقبل ابنتى. أصلـى أربع ركعات لله أن يعود زوجـى آمنًا سـالمًا. الله أكبر. ولم تفكر فى شـىء وهى تصلى إلا أن تتلو الآيات فى خشـوع وإيمان وتؤدى الصلاة على أكمل وجه حتى إذا أتمتها وسلمت عن يمين وشمال راحت ترنو إلى الأريكة التى تواجهها بحسبها أن يعود زوجها سالمًا فيلبس جلبابـه وطاقيته ويربع رجليه علـى هذه الأريكة ويروى لها عن القاهرة وما رآه. إنها لا يهمها من أمر القاهرة شىء، ولكن يهمها كل الأهمية أن يجلس زوجها على الأريكة ويروى.

❑❑❑

(٣)

كل

مـا يحيط بها أمن. هى واثقة مـن الزمن، واثقة من نفسها، لا تعبأ بشىء، تفعل ما تراه خليقًا أن يفعل، لا يهمها رأى أحد ما دامت هى مطمئنة إلى رأيها، أحبت فلم تخف من الحب. وقد مشى الحب إلى قلبها منذ عرفت قلبها؟ فقد تعرفت على قلبها أول ما تعرفت وفيه هواه. منذ هى طفلة وقلبها طفل وشـبا وشب الحب معهما. لم يعنها أن تحب البك بن البك بن الباشـا. وإنما أحبت فى صراحة مع نفسـها، وفى اطمئنان ودون خوف.

فالحب عندها نبضات قلب، وما كانت تتصور أن قلبًا يعيش دون نبضـات، لم تعلن حبها إلـى أحد لأنها لم ترد داعيًا إلى إعلانه. ولم تهمس إلى طلعت وإنما كانت تعرف أنه يحبها، وأنه يعرف حبها له. فقد همس لها يومًا:

– أتحبيننى قدر ما أحبك؟

وابتسـمت له ابتسامة تعرف هى ما حملته من معان ثم لم تزد شيئًا.

واستمر حبهما بعد ذلك على أساس من هذا السؤال الطيب وهذه الابتسامة المحملة بالمعانى. وقد كانت واثقة من نتائج حبها ثقتها أن اسـمها فؤادة، وأن اسم حبيبها طلعت، وثقة أخرى كانت مستقرة فى قلبها. كانت تعتبر الحب هو الزواج الحقيقى وأن ورقة المأذون إنما جعلت لإعلان هذا الحب.

كانت كلما سمعت عن زواج فى القرية سألت العروس:

– أتحبينه؟

فإن أجابتها:

– نعم.

قالت:

إذن فهو زواج.

وإن قالت لها:

– أمر أبى.

أو:

– أمر أمى.

سكتت فؤادة بلسانها، وقال قلبها لم يتم زواج. إنها وجدت معنى الحب هذا العميق ضاربًا فى الأعماق البعيدة فى نفسها، فكأنما ولدت ومعها هذا المعنى. ويا طالما سـمعت أمها تعيد هذا الكلام، فما كانت تحب من أمها حديثًا مثل هذا الحديث.

بل كانت تدهش إن وجدت رأيًا لا يتفق ورأيها هذا. كان الحب عندها هو أنغام الحياة جميعًا فإن سمعت موسيقى فهى رسول من وادى الحب الظليل وإن قرأت شعرًا فمنبته فى رأيها أفناء الحب الوارفة وإن رأت يدًا كريمة تمتد لفقير بائس أو محتاج فى ضنك، فاليد ممتدة أولا وقبل كل شىء من منابع الحب الصافية الخالدة فى أعماق الإنسانية. الحب هو كل جمال فى الحياة هو كل معنى كريم فى صلات الناس، وحين يتلاشى الحب أو يهن بين القلوب فالحياة إلى شر وعذاب وألم، فالجريمة لم تصبح جريمة إلا لأن صاحبها لم يدر ما الحب، فلو درى الحب ما أجرم، والشرور كلها تنضح عن آنية البغضاء أو الحقد أو الطمع.. والحب هو كل حياة جميلة فى الحياة.

هائمة فؤادة فى معانى الحب وفى ألوانه، تحب الحب بكل نأمة من كيانها وكل نبضة من قلبها وكل مسرى فى دمائها وكل عرق من أعراقها. تمثل لها الحب جميعًا فى كل صلة من صلاتها، فهى تحب أمها وتعجب بها أحيانًا ولا تعجب بها أحيانًا أخرى، ولكنها تحبها، وهى تحب أباها وتعجب به أحيانًا حين يحنو عليها ويعطف على أمها، ولكنها لا تعجب به حين يخاف من عتريس ومن عبد الصادق، ثم تظل مع ذلك تحب أباها. وهى تحب الله ولا تناقش من شئونه

شـيئًا وإنما هى تحبه ولا تحاول أن تعلل هذا الحب أو تتعمق أسـبابه أو منابعه.هى تحبه وكفى وتخشـى أن توجد لحبها أسـبابًا حتـى لا يهن هـذا الحب ولا يضعف. ثـم هى تحب الناس أجمعين. لها فى لقائهم ابتسـامة لا يشـعر بها الناس ولكنهم يجدون أنفسهم تميل إليها دون أن يحللوا أسباب هذا الميل. كانت فؤادة قديرة على أن ترسل إلى نفوسهم إشعاعات خفيفة مـن الحب الذى تحمله لهم فيجدون أنفسـهم يميلون إلى فؤادة. لا يدرون إن كانت هذه الإشـعاعات مرسـلة إليهم عن طريق هذه الابتسـامة التى تنبعث على شفتى فؤادة ويبين فيها أنها متصلة الجذور بالأعماق البعيدة من نفسـها وليست ابتسـامة على السطح مبتوتة الأصول لا تعبر عن أعماق القلب. لا يـدرون. أكانـوا يميلون إلى فؤادة لأنها كانت تسـتمع إلى شكواهم بكل نفسها. وتندمج فى مشاكلهم، فكأنها مشكلتها، يكادون يرون نبضات قلبها تنبض بمخاوفهم وآلامهم وآمالهم. لا يـدرون أكانوا يميلـون إلى فؤادة لهـذا أم لأنهم لا يجدون داعيًـا ألا يميلوا إليهـا. كان كل فرد فيهم يعلـم أنها تحمل مشكلته ومشـاكل الآخرين فى أعماق قلبها. فلم تذع يومًا سرًا لأحد منهم. وكانوا يحسون أن مجرد رواية ما يعرض لهم من هموم على فؤادة هو فى ذاته بداية التخفيف من هذه الهموم،

أولئك الذين كان يؤذيهم عتريس كانوا يشكون لها وكانوا يرون وجهها يفيض بالحزن والألم والأسى. وكان يكفيهم أن يروا هذا فى وجهها حتى يحسوا أنهم ليسوا وحدهم فى الحياة. وكانت فؤادة تزداد فى كل يوم بغضًا لعتريس فهى كما تعرف الحب الشديد الصافى للحياة وأبناء الحياة تعرف البغض الشديد لأعداء الحياة وأبناء الحياة.

كان الرجال أكثر الشاكين إلى فؤادة من إجرام عتريس وكان قلب فؤادة ينصدع لشكوى الرجال وكانوا يحسون بمشاعرها. كانت خلجات فؤادة جميعها تظهر على وجهها، فكان من يكلمها يحس أنه يخاطب قلبها مباشرة لا أذنيها ولا وجهها، وكان يحس أنه يتلقى حديثها من قلبها لا من لسانها، فكان صدى حديثها فريدًا فى نفوسهم لا يشبهه حديث أحد من الناس الذين يعرفون.

ولكن هناك واحدًا فى القرية لا يترك فرصة يراها فيها إلا حادثها حديثًا ليس فيه شكوى، وإنما هو حديث من نوع غريب فيه إخلاص وفيه تقدير. كان ذلك هو الشيخ إبراهيم علام، وهو رجل يملك فى القرية فدانين يزرعهما هو وولداه محمود وطه يعيشون من محصولهما. وكان كلما التقى بفؤادة أحب أن

يحادثها وكانت هى أيضًا تحب أن تحادثه حديثًا عابرًا ولكنه كان حبيبًا إلى كل منهما.

كانت فـؤادة فى ذلك اليوم فى طريقها إلى الســت تفيدة، وكان الطريق خاليًا بها حين نبت الشــيخ إبراهيم من ثنية فى الطريق فوقفت فؤادة وقال الشيخ إبراهيم:

– صباح الخير يا ست فؤادة.

– صباح الخير يا عم الشيخ إبراهيم.

– الله معك.

– إنه معى.

– لأنك معه.. أنت تحبين الله يا فؤادة وهو يحبك.

– ويحبك أنت أيضًا يا شيخ إبراهيم.

– موفقة دائمًا إن شاء الله.

– شكرًا يا عم الشيخ إبراهيم.. ادع لى.

– أدعو لك دائمًا.

– أفوتك بعافية.

– مع السلامة.

وانصرفت فؤادة إلى بيت الست تفيدة واتخذ الشيخ إبراهيم طريقه إلى غيطه.

❑❑❑

(٤)

حين

ترك الشيخ إبراهيم فؤادة لم يمش كثيرًا وحده، فما أسرع ما رافق طريقه عبد الغنى حسون لسان القرية المنتشر ينقل أخبارها ويكسب عيشه من نقل هذه الأخبار. فهى وسيلته أن يحادث الناس، ولن يعدم الناس لقمة يقدمونها له أو نصف قرش يبرونه به وهو بهذا قانع. وهو يحب عمله ويخلص له كل الإخلاص. ويتتبع الأنباء من مصادرها وينقلها إلى كل من يلقاه، فما هى إلا دورة منه أو دورتان حتى يصبح الخبر ملء القرية جميعها.

وقد كان عبد الغنى حين التقى بالشيخ إبراهيم محملا بالأخبار ولم يكن قد التقى بأحد بعد، فراح يلقى أخباره فى دقة وقد كان قادرًا وهو يلقى أخباره أن يسوقها فيما يشبه الحديث العادى بين الأصدقاء. وكان الشيخ إبراهيم لا يعلق على أخباره بغير جملتين يختار الواحدة منهما حسب ما يقتضيه الخبر فهو إما أن يقول: «الحمد لله» أو يقول: «أعوذ بالله» ولا يزيد.

وقد كانت الأخبار فى ذلك اليوم مليئة باسم عتريس، فهو قد سرق بهائم عبد العال التش ويطلب لها حُلْوانًا مائة جنيه. وهو أيضًا أغرق أرض حسنين أبو شوشة لأنه كان قد ذكره بسوء فى فرح «أبو ديب»، وهكذا لم يستعمل الشيخ إبراهيم عبارة «الحمد لله» إلا مرة واحدة فى هذا الحديث الطويل حين أخبره عبد الغنى أن عبد الباقى عمارة قد أنجب ولدًا بعد أن انتظر هذا الإنجاب مدة ثلاث سنوات.

اقترب الشيخ إبراهيم من غيطه ومعه عبد الغنى حسون وبلغت آذانهما أصوات ضجيج وتصايح، فحثا الخطا، وعند الغيط رأى الشيخ إبراهيم ولديه محمودًا وطه ومعهما جاره على يهدد، وقد راح ثلاثتهم يتبادلون الوعيد فعلى يهدر بقول:

– والله أكسر رجل من يقترب من الماء.

ويصيح محمود:

– أنت تكسر رجل من يقترب. والله مصائب.. يا أخى عيب. والله إنك لا تتحمل منى خبطة.

ويصيح على:

– خبطة فى رأسك ورأس من خلفوك.

ويقول الشيخ إبراهيم ولم يكن الجمع الثائر قد رآه بعد:
– وما ذنب من خلفوه يا عم على..
ويصيح على فى ثورة:
– نعم أنت الآخر.. ماذا تريد؟
– خيرًا يا بنى خيرًا إن شاء الله.
– شغل الطيبة هذا لا ينطلى على.
وصاح طه:
– يا ولد اصح شف من تكلم.
ويقول على:
– يا سيدى «طظ» فيك وفيمن أكلم.
ويقول الشيخ إبراهيم:
– كثر خيرك يا ابنى..
ويهاجم طه عليًّا يريد أن يضربه ويلحق به محمود، ويقول الشيخ إبراهيم فى حزم وهدوء:
– ارجع يا طه.. ارجع يا محمود.
ويقف الشابان ويقول طه فى ضيق:
– آبا..
ويقاطع أبوه:

– ولا كلمة.. ماذا حصل يا سى على؟

ويقول على:

– آه.. آه يا حبيبى.. كل عقلى أنت.. يا سى على قال. قال يا سى على.

– يا ابنى ماذا حصل؟

– لا أدرى.

ويقول محمود:

– يريد أن يروى غيطه قبل أن نروى نحن.

ويقول الشيخ إبراهيم:

– ولكـن الماء يمر بنـا أولا.. وقد ظللنـا العمر كله نروى قبلكم حتى أيام المرحوم أبيك كنا..

ويقاطعه على:

– لا شأن لى بأبى..

ويحاول عبد الغنى أن يقول:

– لا حق لك يا على.

ويزجره على فى عنف:

– اسكت أنت يا ضائع.. ما شأنك أنت؟

ويقول الشيخ إبراهيم:

– أنت ترى أنك على حق يا على؟

– نعـم.. على حق وعلى حق.. ومن لا يعجبه يشـرب من البحر.

– لا يا ابنى لا بحر ولا ترعة.. ارو أرضك.. هيا يا محمود هيا يا طه ويقف الشابان ويقول محمود:

– يابا أقسـم بالله إنـه لا يتحمل خبطـة.. ألا ترى يا أبى هزاله.. لماذا نخاف منه يا أبى؟

ويقول الشيخ إبراهيم:

– أنا لا أخاف المخلوق أبدًا.

– وهل يرضى الله بهذا؟

– لا تطل الجدال.. الجار أغلى من الأرض.. هيا..

ويقول طه:

– يابا هذا.

ويقول الشيخ إبراهيم فى حزم.

– ولا كلمة.. هيا معى إلى البيت.

ويمشـى ثلاثتهم ومعهم عبد الغنى الذى ما يلبث أن يقول فى صوت خافت:

– لماذا لم تتركهما يؤدبانه يا عم الشيخ إبراهيم؟

– المؤدب ربنا يا عبد الغنى.. المؤدب ربنا.

ويذهب الجميع إلى بيت الشـيخ إبراهيم ويقول عبد الغنى فى نغمة متخاذلة:

– أستأذن أنا يا عم الشيخ إبراهيم.

ويقول الشيخ إبراهيم:

– بل نفطر معًا.. هات لنا لقمة يا طه.

ويدخل طه إلى البيت. ويقول عبد الغنى:

– ألم يبق إلا على بهدر حتى يتطاول عليك؟!

ويقول الشيخ إبراهيم:

– دع على بهدر فى حاله.. قل أنت بماذا سمى عبد الباقى ابنه ويفهم عبد الغنى أن الشـيخ لا يريد أن يسمع ذمًّا فى على بهدر فيدير الحديث إلى حيث يريد الشيخ ويقول:

– اسماه عمارة على اسم أبيه.

– ونعم ما فعل.

ويـروح عبد الغنى يلقى أخبارًا أخرى عن القرية والشـيخ يسـمع ويأتى الطعام فيفرغ له عبد الغنـى بجميعه وما يلبث أن يأتى إليهم فى مجلسهم عبد الباقى عمارة ويستقبله الشيخ مرحبًا.

– أهلا عبد الباقى.. كنت قادمًا إليك لأهنئك.

– أطـال الله عمـرك يا عم الشـيخ إبراهيم.. قـل لى.. أين محمود وطه؟

– هنا.. أتريدهما فى شىء؟

– لا.. لا شـىء، ولكـن رأيت المياه فى الغيـط ولم أرهما فحسبت أن شيئًا عاقهما عن رى الأرض.

– المياه فى غيطى أنا.

– نعم.

– هل رأيتها بعينيك.

– نعم الآن.. كنت عند الغيط الآن وجئت إلى هنا مباشـرة لأطمئن عليهما.

ويخرج طه ومحمود مسرعين، ويقول محمود:

– هل أنت متأكد يا عبد الباقى؟

– أقول لك كنت فى الغيط الآن.

ويقول طه:

– هل رأيتها بعينك؟

– وهل كنت سأراها بأذنى.. طبعًا بعينى!

ويلتفت طه إلى أبيه:
– أرايت يا أبى؟
ويقول الشيخ إبراهيم:
– انتظر حتى نرى.
ويقول طه:
– وهل بقى فيها انتظار.. على أغرق الأرض.
– قلت لك انتظر حتى نرى.
ويلتفت طه إلى محمود:
– أحضر فأسك وفأسى من الدار يا محمود. هلم بنا.
ويقول الشيخ إبراهيم:
– قلت لك انتظر حتى نرى.
ويقول طه:
– نأخذ الفؤوس معنا.
ويقول الشيخ إبراهيم:
– بل نذهب بغير فؤوس.
ويقول طه:
– يا آبا..
وقبل أن يكمل يقاطعه الشيخ إبراهيم قائلا:
– لا تطل وهلم بنا.

ويقصــدون جميعًا إلى الغيط ومعهم عبد الغنى وعبد الباقى عمارة وحين يقتربون من الغيط يجدون الماء فيه فعلا، ولكنه ماء من يريد أن يروى لا من يريد أن يغرق. وما لبثوا أن تأكدوا أن الماء يجرى فى غيطهم تجريه يد صانع تحنو على الأرض، وتعطيها من الماء ما يكفيها دون زيادة أو نقصان. ووجدوا على يقوم برى الغيط فى هدوء وســعادة.. وينظر خمستهم بعضهم إلى بعض ويبتســم الشــيخ إبراهيم ولا يقول شــيئًا لهم وإنما ينادى من أقصى الغيط:

– ماذا يا على؟

ويأتى على مسرعًا ويمسك بيد الشيخ إبراهيم.

– سامحنى يا عم الشيخ إبراهيم.

– لا عليك يا ابنى.

– خجلت منك بعد أن انصرفت فرحت أروى الغيط وحدى لعلى أرضيك وأرضى نفسى.

ويلتفت الشيخ إبراهيم إلى ولديه:

– انــزل يا محمود أنت وطه مع أخيكما وارويا معه أرضنا حتى إذا فرغتم فارويا معه أرضه.

ويتقــدم الأخوان من علــى وما يلبثــان أن يعانقاه ثم يأخذ ثلاثتهم سمتهم إلى جدول الماء.

وينصرف الشيخ إبراهيم وفى رفقته عبد الغنى وعبد الباقى صامتين.

❑❑❑

(٥)

إنعام

وجه مستدير وعينان واسعتان تنظران إلى الدنيا فى جرأة وبغير اهتمام وأنف كبير بعض الشىء وشعر أسود فاحم غزير ينسكب من المنديل حتى ليغطى رقبتها الطويلة. وهى ذات قوام فارع يميل إلى النحافة. تركها أبوها عبد العليم وهى بعد طفلة، ولم تكن أمها ذات جمال، ولا هى ذات مال، فراحت تعمل فى القرية طولا وعرضًا تجمع ما يقيم أودها وأود ابنتها فلا تكاد. ونشأت الفتاة وحيدة. واستقبلت الحياة أول ما استقبلتها وقد أدركت أن ليس لها فى هذه الحياة إلا نفسها فاعتمدت على نفسها هذه كل الاعتماد. وحين شبت عن الطوق ضربت فى غمار العمل. وتعلمت. تعلمت كل شىء عن الرجال. فقد أدركت أنهم هم الذين يسيرون هذه الحياة وفق ما تشتهى آراؤهم وعقولهم فلم تجد أى فائدة أن ترضى النسوة بل وجدت الفائدة كل الفائدة أن يرضى عنها الرجال. ووافق العلم الموهبة فإنها حين بلغت الثالثة عشرة عرفت كيف تبدو جميلة، وعرفت كيف تحسن الابتسامة، وكيف

تتقن الضحكة بل كيف تجمل التجهم إذا أرادت التجهم، على قطعة من مرآة مكسورة فى زاوية من زوايا بيتها. كانت إنعام تقوم بالتمرين اليومى وكانت تطبق ما تفعله فى البروفة بينها وبين مرآتها على مسرح الحياة الكبير، فما إن بلغت السادسة عشرة حتى كانت حديث الشباب فى القرية جميعًا.

لـم تكن أجمل فتيات القريـة، ولكنها كانت أقدر الفتيات فيها على إرضاء رجال القرية جميعًا. فللشـيخ المسـن عندها ابتسامة تعيد إلى نفسه ما انقضى من شبابها وللشاب المغرور ضحكة تؤكد ثقته بنفسـه وللجميع. لها مشـية تلتقط الأنظار التقاطًـا فتجعلهـا تتبعها إن هى أدبرت أو تسـتقبلها إن هى أقبلت.

وحين بلغت السابعة عشـرة كان رشدى عبده قد ورث عن أبيه عشـرة أفدنة وجسـمًا ناحلاً وتقدم رشـدى للزواج منها ووجدت فيه آمالها التى نسجتها، وهى تطالع المرآة الكسيرة وسارعت تقبل الزواج.

وأقبل رشـدى على الـزواج إقبالة لهفان مشـوق. وفى يوم الزفـاف جلس إلى رفقـة طالعوه بحديث اضطـرب له بعض الحين.

– ماذا أنت فاعل الليلة يا أبا الرشد.
– ما فعله آباؤنا وأجدادنا؟
– ولكن البنت فى صحة تأكل الحديد وأنت.
– وأنا ماذا بى.. لا يغرك ما تراه من نحولى.
– لا يا بنى هذا الكلام لا ينفع لا بد مما ليس منه بدّ.
– وما هذا الذى ليس منه بد؟
– قرش أو قرشان.
– بسيطة.
– يتهيأ لك.
– ماذا تقصد؟
– أعطنى خمسين قرشًا.
– ألم تقل قرشًا أو قرشين.
وتعالى الضحك من الرفاق وأدرك رشدى ما يقصدون فقال:
– آه تقصد الـ..
– آه أقصد الـ..
– لا يا شيخ.
– بل نعم يا شيخ.
– أنا لم أذقه فى حياتى.

– فأنت بين اثنتين.. إما أن تذوقه أو لا حياة لك على الإطلاق.

– صحيح.

– جرب.

– هاك خمسين قرشًا.

وحين جرب رشدى وجد نفسه يهيم فى ملكوت من الأحلام والرؤى، فهو الذى يرى نفسه ضئيلا كالوهم، نحيلا كالخيال، أصبح فى رأى نفسه أسدًا هصورًا مزدحمًا بالشجاعة. فما عتريس حينئذ أمامه إلا فأر صغير هزيل وما أعماله إلا لعب أطفال لا قيمة لها.. أين منه عتريس حين يخلو به مخدره.. وتزوج رشدى وأصبح منذ هذه الليلة وهو لا يفيق.وكان يطيب له أن يدعو رفاقه إلى جلسة المخدر. وكان يخيل إليه أنه يرضى بالمخدر زوجته الإرضاء الذى لا مثيل له. وعلى هذه العقيدة كان يبيح لنفسه أن يتأخر فى جلسته إلى الهزيع الأخير من الليل.

وسرعان ما استقرت العادة عند إنعام. فأصبحت على ثقة فى كل ليلة أن زوجها لن يعود إلا قبيل بزوغ الفجر. فهى فى خلوة مطمئنة. وهى من نفسها وضميرها فى بحبوبة وهى من جمالها وجاذبيتها فى غنى وافر، وطالما تزاحمت حواليها

قبــل الزواج الآمال الملتهبة والأيدى الممتدة والمطامع الفائرة وكانت هى بضحكة لا تخطىء الفريســة تعد ولا تعطى وتفسح للآمــال أبوابها ولا تدع أحدًا يلج من هــذه الأبواب من الآمال إلــى وادى الحقيقية الظليل الوارف فالشــباب الهائم بها على موعــد منها دائم لا يعرفون مكانــه ولا يعرفون موقته. وحين تزوجت وطالت بها أيام الزواج، وطال بزوجها السهر وانقض عليه المخدر وأنشب فيه أظافر تمتص البقية الباقية من صحة عليلة وشباب ضامر. نظرت إنعام إلى شبابها فوجدته يتسرب فى رمال الحياة، فلا يزهر حيثما يتســرب نبتًا، ونظرت إلى حياتهــا فوجدتها قاحلة بلا مال، ومن أين لها المال وزوجها قــد أولع بالمخــدر ولعًا أخذ عليه مســالك تفكيــره جميعًا.. لمــا رأت إنعام هذا أصبحت مواعيدها للشــباب معينة المكان والموقت. ولم يكن المكان إلا بيتها، ولم يكن الموقت إلا حين يغيــب زوجها عــن المنزل فى محاولتــه أن يغيب عن الوعى جميعًــا وأرادت إنعام أن تكســب من صلاتها بشــباب القرية شــيئين وقد كســبتهما معًا كانت تريد أن تروى جسمها الذى أجدبه هزال زوجها، وكانت تريد أن تكســب مالا، فهى من خوف الفقر الذى عرفته فى قلق دائم يستقر بها على الحال.

وتسامع شباب القرية بهذه التجارة الجديدة التى فتتحتها إنعام فــى بيت زوجها رشــدى، والمورد العــذب كثير الزحام فكانت تعطى الموعد للشاب من هؤلاء وهى فى صحبة شاب آخر لم يبارح منزلها بعد. ولم يبق فى القرية من لم يعرف أمر هذه التجارة إلا رشدى وقد كان رفاق جلسته أنفسهم يتركون جلسته ويقصــدون فرادى إلى بيته ثم يعودون إلى جلســته وهو ما يزال يضحك سعيدًا أنه ابن كيف وأنه رجل وأنه قوى وأنه أسد.

وفى يوم توعك مزاج رشـدى ولم يحس النشـوة التى ألف أن يحسـها فقام من المجلـس يريد أن يذهـب إلى بيته وكان معه رفيقان له حاولا أن يسـتمهلاه فلم يتمهل فأسرع أحدهما خفية يريد أن يسبقه إلى البيت لعله يمنع الكارثة أن تقع وبلغ صديقه البيـت وطرق الباب فلم يجبه أحـد فاطمأن وانصرف وجـاء الصديق الآخـر مرافقًا لرشـدى فى الطريـق يريد هو الآخـر أن يطمئن أن رشـدى لن يرى مـا لا ينبغى له أن يرى وبلغ رشـدى البيت ولم يطرقه، وإنمـا أولج المفتاح فى الباب ودخـل الظلام دامس ولكن نوراً خافتًا ينبعث من حجرة النوم سـلم على صديقه وأغلق الباب وقصـد إلى غرفة النوم وفتحها وتسـمر بالبـاب أغمض عينيه ثم فتحهما تغير المشـهد ولكن ليؤكـد الحقيقة التى رآها... إنها حق لـن يغنى معه إغماض العـين.. تزوجها من الطريق العام وجعل لها بيتًا وصانها عن العمل وباع أرضه ليشـرب لها الحشـيش ثم هـا هى ذى أمام عينيـه.. أحبها... أحبها بكل دفقة دمـاء فى عروقه... بكل آمال الشـباب وعنفوانه ولم تنجب له ذكرًا ولا أنثى، وها هى ذى أمامـه.. صرخ.. صرخ بلا حديث.. وصرخ وصرخ.. وانفتل الـذى كان معها قافزًا وفتح الباب الخارجى وخرج إلى الطريق

وامحى فى الظلمة ولم يبق من الحادثة إلا صراخ رشدى وذهول إنعـام. وتجمع الجيران ولم يسـأل واحد منهم ماذا حدث فقد كانوا جميعًا يدركون ما حدث، ولن يجيبهم أحد إن هم سألوا فالزوجـة ذاهلـة والزوج يصـرخ.. آه عاليـة عريضة مرتفعة كصـوت حيوان يعذب حيًّـا فوق النيران فلا النـيران تأكله، ولا هـى عنه قصية.. آه معذبة والهـة حرى طويلة تنطلق من الأعمـاق وتجوب الجسـم كله قبل أن تنفجـر من فمه فتخرج كدفاع من الماء يخرج من عين ضيقة لا تتسـع للسـيل، طويلة هذه الآهة عرض العذاب الذى يحسها والمهانة التى يصطليها.

ونظـرت الأعـين إلى الزوجة وهـى تتهرب مـن نظراتهم بنظرات واجفة تثبتها على زوجها، وكثر الصراخ وكثر وارتعد الجسـم النحيل ثم ارتمى منتفضًا وسـقط رأسه على الأرض وقد علا له ضجيج يشـبه صراخه الذى كان يصرخه وانطلق الصمت بعد الضجيج وألقى الناس عليه نظرة ولعل فكرة راودت بعضهم كيف كان هذا الصراخ جميعه ينطلق عن هذا الجسـم الضئيل... كيف اتسـع هذا الجسـم لهذا الألم. فكرة خطـرت، لحظة من صمـت هوَّمـت عليها الحيرة ثـم ارتفع اللغـط ويتقدم بعضهم منه، وطلب بعضهم ماء وبسـمل بعض وحوقل آخرون والجسم على الأرض ينتفض وتتقلص أطرافه وتتشـنج وغاب رشدى عن الحياة. وانسكب عليه الماء فلم يجد الماء وإنعام تشهد ولا تدرى مـا تفعل.. الجميع يعرفون ما جرى على ثقة مما يعرفون ولكن لن يستطيع أحد أن يشير إليها بهذا الاتهام فما رأوا رأى العين إلا زوجًا يعتوره الصرع وزوجة واجفة مما ترى عليه زوجها.

ولم يسأل أحد ماذا، ولكن إنعام أرادت أن تقول شيئًا وقالت.. دخل وأنا نائمة أحسسـت به وقمت أفتح باب الحجرة ولكنه لم يدخـل، وإنمـا وقف يصرخ حتى جئتم.. عـين وأصابتنا.. ولم يسـمع أحد ما تقـول.. ولكنها ظلت تقـول لا يعنيها أن يسمع أحد ولا يسمع. وإنما هى تقول.. وانقضى بعض الحين،

وفتح رشـدى عينيه، وتهافت إليه المجتمعون.. ماذا حصل.. عينـان تدوران فى الناس لا تعيان من أمر الناس شـيئًا ووضع يده على رأسه حيث اصطدمت بالأرض، ثم رفع يده ولم ينظر إليهـا وتعالى الضجيج من الناس ورشـدى صامت، وحملوه إلى سريره وانتفض مرة أخرى وهم يقتربون به إلى الفراش، ولكنه استسلم إلى السرير، وتخافت الضجيج وبدأ الناس يعودون إلى بيوتهـم صامتين وأغلقت الأبواب على أصحابها وأغلقت إنعام باب بيتها وشمل الظلام القرية جميعًا.

* * *

بعد أيام قليلة كان رشدى فى طريقه إلى مستشفى الأمراض العقلية، وكانت إنعام عند الأستاذ عليوة تطلب الطلاق، وقبل عليـوة القضية فى طبيعة مواتيـة فالأمور فى ظاهرها طبيعية الزوجـة فى عنفوان الشـباب، والزوج فى سـراى العباسـية والقانون يبيح لها طلب الطلاق وما هو إلا قليل من الحين حتى كانت إنعام مطلقة تمارس تجارتها بلا خوف ولا حذر والمورد العذب كثير الزحام.

❑❑❑

(٦)

الآمال

الباسمة، والأحلام الوردية والرؤى والجمال، وأيام الشباب المزهرة بالخيال الرحيبة بالثقة المفسحة للمستقبل أبوابًا من الجنة وسبلاً من المجد وطرقًا من الرفاهية وخمائل من الهناء أيام كانت اللذة الحالمة أحلى من اللذه الماثلة وكانت النظرة إلى الأيام المحجبة فى ظلال المستقبل تحيل الحاضر القاسى المرير فردوسًا أخضر الجوانب مخضل النبت مزدهر المرأى بأنواع من الأزاهير ملتهبة الألوان، تسكب فى القلب الدفء والسرور المفعم باليقين، والاطمئنان المضمخ بأريج العزة والجاه..

هذه الآمال التى كنا نعلقها بالأيام القابلة من حياتنا، ونحن نعلم أن الأيام ستجعل من هذه الآمال حقيقة، علمنا بأن هذه الأيام قادمة مع المستقبل، حلوة هذه الأيام ولو لم يكن فيها إلا هذه الأحلام لكانت وحدها واحة الحياة نلجأ إلى ذكراها من الهجير الذى لقيتنا به الأزمان.. هذه الأيام التى وثقنا بها فخانت وألقينا إلى أيديها آمالنا فإذا الآمال

هشـيم، وإذا الذى كان فى يقيننا مستقبلاً مضمخًا بأريج العزة يصبح ماضيًا حقيرا أقتر حسـيـرًا تلف حواشيه أتربة الريف المتصاعدة من مشى البهائم على الطريق.

أيــن ممدوح.. كان إذا دخل الفصل أقف له.. وكيف لا أفعل وأنا ذلك الشــىء الذى ســبح كالهوام من أعمــاق الريف.. من هنــا.. من الدهاشــنة.. إلى القاهرة.. أم الدنيــا.. أى دنيا تلك التــى يقولــون إن القاهــرة أمهــا.. دنيا حقــيرة لا تزيد على الدهاشــنة.. من هؤلاء الذيــن يقولون إن القاهــرة أم الدنيا.. زحفــت إليها كالهــوام وأدخلونى إلى فصلــى بكلية الحقوق، وأقبــل بعد حين ممدوح فتى سمهرى القوام فارع الطول أبيض البشرة كأنما بشــرته لم تلتق بالحياة.. ناعم الشعر صقيلة قد مشــطه صاحبه فى عناية فجعله يبدو مؤدبًا مطيعًا لا تند منه شــعرة ولا تثور، إنمــا هى مع رفاقها تجعل مــن رأس الفتى الجميل تحفة فنية رائعة.. لمــاذا تعطى الحياة فتغدق، ولماذا تمنــع فتغلو فى البخل.. هذا الفتى الحلو لا يملك أحد أن يراه ولا يســأل من هذا.. شخصية واضح أن الحياة تحبه وتهب له فــى بذخ.. أليس هــذا الجمال موهبة كموهــوب فى الفن.. أو موهوب فــى العلم.. أليس الجمال موهبة.. ســألت من هذا..

ونظر إلى التلميذ الذى كان بجانبى.. شاب مثلى زحف أبوه من الريف وأنجب أبناءه فى القاهرة، فلم يغير هذا منهم شيئًا.. أصبحوا جميعًا قطعًا من الريف وإن ولدت بالقاهرة.. سألته من هذا.. قال: ممدوح بن حمدى باشا صفوت وزير الزراعة.. ولكن حمدى باشا صفوت فيما أعلم فلاح.. نعم.. هذا الفتى ابن فلاح وقمت واقفًا.. لم يكن الدرس قد ابتدأ وسألنى جارى: لماذا تقف؟ ولم أجب عن سؤاله.. أكل هذا الجمال وأبوه وزير أيضًا وباشا.. إنها فعلا تعطى فتغدق.. كنت كلما دخل ممدوح الفصل أقوم واقفًا.. لم نصبح أصدقاء قط. ولكنه كان إذا لقينى خارج الكلية حيانى.. أما فى الكلية فقد كان يشيح بوجهه كلما رآنى أقف له.. وفى يوم دخل فوقفت فقصد إلى ضاحكًا وحدثنى عن الأستاذ لماذا تأخر.. ومتى سيبدأ الدرس وسألنى إن كانت مذكراتى كاملة.. ودعانى أن أذهب إلى بيته.. بيت حمدى باشا صفوت.. أنا.. اعتذرت.. كيف أدخل.. بماذا أدخل؟ بحذائى هذا ذى الرقبة الطويلة والقفل الذى يشبه قفل صندوق الملابس عندنا فى الدهاشنة؟ أم أدخل بشعرى هذا القافز إلى الهواء؟ أو بوجهى هذا الترابى اللون؟ أم بحلتى هذه التى تشبه فى خطوطها الجلابيب؟. لا.. مالى وهذا.. ولكنى فهمت لماذا كلمنى.. لم أقف بعد ذلك ولم يكلمنى هو

من بعد.. أين ممدوح الآن أتراه يذكرنى..؟ ماذا يعرف عنى..؟ أنــا أقرأ اسمه بين الحين والآخر فــى الجرائد.. أما هو فماذا يعــرف عنى..؟ كنت أحلم أن أصبح مثل حمدى باشــا صفوت نفســه.. ولماذا لا..؟ هو فلاح وأنا فــلاح.. وهو خريج الحقوق وأنا خريج الحقوق.. صحيح اسمه لا بأس به.. له رنين فخم، واسمى له صوت كنعير الجاموســة: عليوة.. جاموسة تنعر.. ولكن متى كان الاســم حائلا دون الوزارة.. أو هو على الأقل لا يكون حائــلا دون الأحلام.. أخبار ممدوح فى الجرائد لا تفيد شــيئًا إلا أنه يعيش، أما أنا فهو لا يدرى إن كنت أعيش أو لا أعيش ولكنى لا شــك أحيا فى ذاكرته.. ذلك الشاب ذو الشعر القافــز الأسمر اللون النحيل الجســم المخطط الملابس الذى كان يقف عند دخوله.. لا يذكرنى ولكنه لا يعرف عنى شــيئًا من بعد.. ظننت أننى لن أقضى فى الدهاشنة إلا بضعة أعوام، فإذا الأعوام تتطاول، ثم تتوقف عن المســير، وأظل أنا بالدهاشنة.. ترى لو خطبت ابنة رئيس النيابة أيرضى أن يزوجنى ابنته.. إنه يشــبه حمدى باشــا صفوت.. يشــبه صوره التى تنشر فى الجرائد.. والبنت تشــبه ممدوح.. أبينهما قرابة.. لكم أحب بنت البك رئيس النيابة.. سنتان الآن منذ رأيتها وهى تنتظر أباها فى العربة على باب المحكمة.. ســنتان وأنا أفكر فيها..

لماذا يرتبط تفكيرى فيها دائمًا بممدوح.. لا أدرى.. أترانى سأقف لها إذا تزوجتها.. منذ رأيتها وأنا أعمل فى جنون.. قبلت كل القضايا.. حتى قضية إنعام.. وأصبحت أملك ثروة الآن.. ألف وخمسمائة جنيه.. أيرضى البك رئيس النيابة أن يزوجنى ابنته إذا أنا طلبتها.. ولم لا..؟ إن كان مركزى الآن لا يعجبه فهو يستطيع أن يعيننى فى سلك القضاء.. وأصبح مثله.. لماذا لا أتقدم؟ أريد أن أكمل الألفين حتى أصبح مطمئنًا.. هذا العتريس المجرم يخيف الناس لو أنهم كانوا يخافونه أقل مما يفعلون لحصلت على أتعاب كثيرة ممن يعدو عليهم ولكنه يرعبهم.. كأنما يسحرهم، يفترسهم وهو صامتون حتى لا يقول الواحد منهم آه.. ذعر هذا العتريس.. لو خفت قبضته بعض الشىء لأكملت الألفين.. وما لى لا أفعل..؟ أنا مصاريفى الشخصية لا تزيد على أجرة لمواصلات من هنا إلى المحكمة.. ومكتبى إيجاره بسيط.. وأصبح لى والحمد لله اسم كبير.. أو أصبح لى اسم على أية حال.. لماذا لا يقبلنى البك رئيس النيابة لابنته.. لعله يريد لها فتى مثل ممدوح.. ولكن الشكل لا يهم.. لعلى الآن أفهم فى المحاماة أكثر من ممدوح.. ما هى الدعوى البوليصية؟ دعاوى كثيرة حفظناها ولم نستخدمها..

لعل ممـدوح يعرف الدعوى البوليصيـة ولكن لا يعرف كيف يحجـز على محصول أو كيف يكتب عقد بيع.. إن عقود البيع هـذه تفـرج علينا فرجًا.. بـاب رزق لا يقفـل.. أكمل الألفين وأتكلم.. يكون عندى المهر والشـبكة على الأقل.. إذا تزوجت بنت رئيس النيابة.. بنت رئيس النيابة.. آمال الشـباب التى أصبحت هشـيما تتجسـم مرة أخرى.. هأنذا أراها هناك على طريق المستقبل وردية كما كانت وردية، مضمخة بأريج المجد والعزة والرفاهية.. أرى الأيام القابلة أزاهير من المنى ووديانًا من الأحلام وخمائل من رؤى الشباب الباكر.

❑❑❑

(٧)

عجيب أن تكسر المرآة فتصبح على هذه الصورة.. دائرة فى الوسط تتشعب منها الشدوخ فى اتجاهات شتى، فإذا هى مرايا شتى وإذا أنا فيها شتى صور وشتى آدميين.. أعرفهم جميعًا ولا أعرف أحدًا منهم. أنا هم كلهم، ولست منهم أجمعين فى شىء.. هذا.. هنا فى هذا الجانب الأيمن.. البعيد هذا عتريس الطفل.. ها هو ذا يضحك فى براءة ساذجة.. ويحب أن يضحك ما استطاع إلى ذلك من سبيل.. ويجلس إلى الشيخ فى الدرس، ويحب أن يسمع القرآن ولا يحب أن يحفظه.. صعب الحفظ. وهو بنفسه عتريس الذى كان يمر بمجامع القرية فيسخر ويضحك ويجرى خائفًا، فلا يعدو الخوف على هذه الابتسامة الساذجة المنشرحة فتظل على شفتيه.. لم تقض الأيام على عتريس هذا الذى يحب الضحك الساذج ها هو ذا فى المرآة اليمنى.. هناك فى الجانب البعيد، إنى أعرفه ولا أكاد أعرفه.. إنه أنا.. وأين منه أنا.. إلى جانبه ذلك الفتى الذى كان يخرج مع جده فى سهرات الليل المحفوفة بالمخاطر... وكان

يخاف ولكن جده مازال به حتى أمات الخوف فى نفسه.. أصبح لا يخاف.. ألا أخاف.. لا يبدو ومنى الخوف ولكن آلا أخاف؟... المهم ألا يبدو من الخوف وأصبحت أخرج على رأس الرجال ويظل جدى فى البيت وأصبحت ذلك العتريس.. هل أنا كما يصفون.. أنا هنا فى هذه المرآة ماذا أبدو – هل أعرف هذا الذى يبدو لى أم أنا لا أعرفه.. أما هذا الذى يليه فى الصورة فيخيل إلىَّ أنى أعرفه.. أو أنا أحب أن أعرفه.. ذلك الشاب الذى يحب الصوت الجميل والشكل الجميل والمرح.. ذلك الشاب الذى يولع بالجمال أينما يكن هذا الجمال. أحب الصوت الحلو الذى يتغنى به المغنى كأنه صلة السماء بالأرض.. وما لى بهذه السماء.. هذا الشاب يحب السماء.. ويحب فؤادة.. لأن فؤادة هى الجمال.. أشبه ما تكون بعروس أرسلتها الجنة إلى الأرض لتغرى الناس أن يصلوا ويزكوا ويمتنعوا عن.. عن ماذا.. لا جنة لى فى السماء.. أكثير علىَّ أن تكون لى جنة فى الأرض.. هذا الفتى الذى يحب.. أنا أحبه.. أهو أنا؟! لكم أحب أن أكونه.. أما ذلك الذى بجانبه.. هنا فى المرآة الوسطى.. كبرى المرايا جميعًا.. هذا الرجل أوشك أن أكون على ثقة من معرفتى به.. هذا الشارب الذى يحتفى

بــه ولا يجعله كبيرًا يعدو على وجهــه ولا صغيرًا يعدو على هيبتــه. وهاتان العينان الحمراوان العميقتان الجريئتان وهذه الجبهة الواثقة وهذا الفم القوى وهذا الذقن البارز وهذا الأنف الذى ينبعث إلى أمام كأنه ســهم القدر.. هــذا الرجل فى هذه المــرآة هو أنا.. أهو حقيقةً أنا؟! أفضل هذا الذى إلى جانبه من الناحية الأخــرى.. الذى يدمع إن سمع دعاء طيبًا ويرف قلبه إن رأى حمامــة ترف على زوجها.. أو هذا الذى يليه الذى لا يــزال يقبل يد والــده.. من أنا فى هــؤلاء جميعًا؟ ومن هؤلاء جميعًا؟ اجتمعوا وما اجتمعوا، وتنافروا وما ابتعد واحد منهم عن الآخر.. أهى المرآة جمعتهم وفرقتهم أم ترانى أنا جمعتهم ونفرت كلا منهم عن الآخر؟ أم هناك قوة أقوى من المرآة ومنى ومــن الحياة هى وحدها التى تملــك أن تجمع الناس وتنفر ما بين بعضهم وبعض. أهذه القوة هى التى جعلتنى أحب فؤادة.. لمــاذا يدوى اسمها دائمًا فى أنحاء جســمى كأنما هو صوت من الجانــب الميمون من الحياة؟. أى شــىء جعلنى لا أفكر إلا فى حبها.. ولماذا التذ شعورى بحبها ولا أتزوجها.. لماذا انتظرت حتى اليوم لم أتزوجها؟ إن هى إلا إشــارة... كلمة أقولها فلا

يشــرق صبح آخــر إلا وتكون فؤادة زوجتى... ولكنى تســبب أجهله أحب أن أنتظــر وأن أسمع اسمها مدويًّا فى كيانى وفى حياتى.. ولكن إلى متى أنتظر.. من أين يأتى هذا الحب.. ولماذا يســيطر على – وأحب منه هذه الســيطرة – أنا الذى لا أطيق أن أســمــع رأيًا يخالف ما رأى.. كيف ألين لهذا الحب وأتركه يفرض علىَّ فرضًا بهذه القوة وهذا الجبروت.. أى أنا فى هؤلاء يحــب فؤادة..؟ هذا العاتى الذى يتصــدر المرآة.. أتحبها..؟! مــا هذا الوميــض فى عينيك؟ ما لــه أصبح نــورًا وكان نارًا.. ما لملامحك قد كستها إشعاعات من الطيبة وغشتها غلالات من الأحلام..؟! وأنت أيها الأنا الذى بجانبه وأنت الآخر وأنت.. وكل أنــا فى هــؤلاء.. ما هذا الحنين؟ قد ألقــى على وجوهكم جميعًــا ليس واحدًا فىَّ الــذى يحبها، وإنما كل أنا فىَّ يحبها ويحن إليها.. ما هذه الوجوه الجديدة التى تزحم المرآة.. وجوه أعرفها وتختلــط بوجوهى فلا أدرى أين صورى بين صورهم.. هذا الشــيخ إسماعيل الصفــورى أصبح ضمــن عصابتى بعد أن طــرده رجال الدين من بيئتهم.. شــيخ هو ولكــن قلبه أخضر يحب النساء والحشيش، ولم يكن ذا مال فسرق حصير الجامع

الذى كان يخطب فيه وقبض عليه وخرج من السجن لينضم إلى العصابة.. فما بقى له من الجانب الآخر من الحياة شىء.. وهذا الذى بجانبه عبد المعطى العجل وكيل الدائرة الذى اختلس من العهدة فمر بالسجن لينضم إلى.. يمسك حساباتى ولا يمسك عهدتى.. وهذا الثالث عثمان شاكر وكيل المحامى زور فى المحكمة توقيع أحد الموكلين وتسلم عنه المبلغ الذى حكم له به وأنفق المبلغ عنه أيضًا وخرج من السجن ليكون ضمن مجلس الشورى فى مملكتى.. مملكة مكتملة ينظرون إلى المرآة.. إلى صورة من ينظرون.. إلى صورهم؟ أم إلى صورى.. إنهم الفئة المتازة فى العصابة ولكن لا صوت لهم بجانب الهمس الذى أهمس به.. صدى هم وأنا الصوت فلئن تختلط صورهم بصورى فلا غرو فما هم إلا شعاع منى وما أصواتهم إلا رنين كلامى يريدون أن يقولوا شيئًا ولكنهم يخافون صمتى كما تعودوا أن يخافوا كلامى لا يبدءون حديثًا لا أبدأه.. لماذا يحلو لى أن ألتذ خوفهم هذا.. لماذا سكت طوال هذه الفترة.. لم يبن الضيق على وجه واحد منهم، بل لعلهم إلى السعادة أقرب.. أليسوا هم وحدهم بين أفراد العصابة جميعًا الذين أسمح لهم بالدخول إلىَّ

بغير حرج.. مكانة يعتزون بها..نعم إنهم إلى السعادة أقرب.

– هيــه.. خيرًا يا رجال.. أعرف ما تريدون، عملية الليلة هل الرجال مستعدون؟ على بركة الله.

❑❑❑

(٨)

أحبها

منذ عرفت الحياة.. مع الومضات الأولى للوعى.. مع النبضات الباكرة من الذكرى.. منذ لا أذكر متى.. وجدت حبها معى منذ تبينت أن اسمى طلعت وأن اسمها فؤادة.. ولم أكن فى حاجة أن أقول لها أحبك وإن كنت قد همست بها فلأستمتع بالهمس.. حلوة هى الهمسة بين حبيبين.. بلورة لحديث من العيون.. وتجسيد لشعاعات تحيط بالحبيبين لا يدريان ما مصدرها.. مغلفة هى بالحب فؤادة.. هى لى.. وأبى لا يرفض، فهو يحب أن أتزوج فؤادة بل لعله يتوق إلى هذا الزواج، فهو دائمًا يتمنى أن تتوثق صلاتى بالقرية، ولم لا؟ أنا منها ولا عيش لى إلا فيها.. ألم أحصل على أكبر الشهادات ومع ذلك يريدنى أبى أن أعمل فى القرية.. عروقى ضاربة فيها.. منها أبى ومنها جدى ومنها كل من أعرفه من جدودى.. عاشوا بها وماتوا فيها فلماذا لا أمكن لهذه العروق أن تتوغل فى أرضها.. لقد قال لى أبى يومًا لكم أحب أن تتزوج من الدهاشنة.. ولم تدهش أمى، بل لعلها رحبت.. فأنا

أســتطيع إذن أن أتزوج من فــؤادة.. بل إنها فى الواقع زوجتى بما بيننا من حب.. ولكنى أحب أن أسألها.. لماذا لا أهمس لها وتهمس لى..؟ لا.. هناك أهم من هذا.. هناك الشــىء الأساسى فــى الحيــاة.. أريدها هــى أن تختارنى.. لا بالابتســامة ولا بالنظرة ولا بمــا أعلمه من أنها تحبنى، ولكن يجب أن توافق على هذا الزواج موافقة صريحة لا شــك فيها.. بإرادة حرة لا ســلطان عليها فيها إلا ما تمليه خوالج نفسها هى.. ما تريده فى البعيد البعيد من أعماقها دون أن يكون لرأى أبيها أو أمها دخل فــى ذلك.. لا أريدها أن تتزوجنــى لأن أباها يريدها أن تتزوجنــى.. إرادة خالصة بعيدة عــن أى مؤثرات إلا رأيها.. أريــد أن أنال موافقتها نابعة من مشــاعرها هى وعقلها هى.. أريدها وحدها التى تقرر هذا الزواج.. هكذا أريد هذا الزواج، ولن أناله إلا على هذه الصورة، ولن يكون إلا هكذا.. فليس بين من عرفت من الناس أحد يقدس الحرية مثلما تقدسها فؤادة.. لماذا أشــعر بحنين إليها مهما تكــن قريبة منى.. هذا الحنين هو الحب.. أنا فى شــوق إليها دائم لا يرتوى.. أحسه مشبوبا

عاصفًا وأحسه رفيقًا كغناء النسيم ناعمًا كوسوسة الهواء يتخلل أعراف الشجر، وأحسه يقيدنى كمنظر أخاذ يمسك بتلابيب النفس، وأحسه حرًّا منطلقًا كملاك منطلق فى الفضاء الرحب.. لكم تحب فؤادة الحرية والعدل.

فى الملعب والأطفال يلعبون الكرة وأنا بينهم، وهناك رجل واقف لا أذكر من كان يحاول أن يعطينى حقًّا لا يتيحه لى قانون اللعب وقبل الأطفال فقد كان الملعب ملعبى، وكانت الكرة كرتى، ولكن فؤادة قالت: لا.. لا حازمة.. أنت تلعب مثلنا فيجب أن ينفذ عليك ما ينفذ على كل اللاعبين الآخرين، ولكنك أنت من فريقى وبهذا التجاوز الطفيف نكسب نحن.. كسبًا لا أرضاه لنفسى ولا أرضاه لك ولا أرضاه للحق.. ليس هذا عدلا.. أنت حرة.. اتركى الملعب... أترك الملعب راضية.. ألهذا الحد.. نعم.. إما أن نكون أحرارًا فى الملعب أو لا داعى للعب.. ما لهذا وللحرية، الحرية هى المساواة، امتيازك عن إخوانك عبودية لهم.. إذن فابقى ويصبح مثلك مثل سائر اللاعبين.. وأصبح مثلى مثل سائر اللاعبين..

وحين كبرت قليلا وأراد أبوها ألا تذهب إلى المدرسة رفضت الأمر وأضربت عن الطعام.. وقال أبوها:

– موتى إذا شيءت، ولكنك لن تذهبى إلى المدرسة.

– أمــوت لأنــك تخنق حريتــى، وأنا لا أطيــق العيش بلا حرية.

– كبرت، ولا يجوز أن تذهبى إلى المدرسة.

– كبرت، ولهذا يجب أن أذهب إلى المدرسة.

– وتخرجين وأنت قد أصبحت شابة.

– وهل تنوى أن تحبسنى إذا بقيت فى البيت؟

– لا، ولكن القرية ليست مثل المدينة.

– إنه أنا فى القرية، وهى أنا فى المدينة.. أيهما أحسن أن أبقى فى القريــة لأصبح حكاية ضمن حكاياتها التى لا تنتهى أم أذهب إلى المدرسة وأستكمل تعليمى إلى أقصى حد ممكن.

– لن تذهبى.

– وأنا لن آكل

– وستأكلين.

– أمـا هذا يا أبـى فأنت لا تملكه.. أنت حـر أن تمنعنى عن المدرسـة لأنك أبى أما طعامى فأنا حرة فى أن أتناوله أو لا أتناوله طعامى أنا..

– أنت حرة

– نعم حرة.

وأضربـت عن الطعام أيامًا لم تطل، فقد أشـفق أبوها عليها وذهبت إلى المدرسـة.. حرة هى.. تعبد الحرية وتعيش بها.. إنها هى نفسـها ما هى إلا نسمة من نسمات الحرية، وشعاع من ضيائها، ونغمة عميقة من موسيقاها.

وانتظرها فى يومه هذا. ووقف صامتًا ونظرت إليه وابتسامة حلوة على وجهها، وما لبث أن قال:

– أتقبلينني زوجًا.

وصمتت لحظات فقال:

– لابد أن أسمع نعم حتى أتقدم.

وضحكت وهى تقول:

– نعم.

– بمجرد عودة أبى من السفر سنأتى إليك..

❑❑❑

(٩)

شيخ أنــت مهيب يحترمــك الجميع فى القريــة كلها.. فحيثما مررت يقف لك الجالسون ويحيِّك الواقفون، ملء عيونهم إجلال واحترام.

يتوقــف الأطفال عن اللعب إن مررت بهم، ويضع النســوة خمرهــن على منتصف وجوههــن إذا التقين بك، ويرحب بك أعيان القرية فى مجالســهم.. شيخ مهيب.. جليل فارع القامة عريض المنكبين نضر السمات أنت، وجيه.. ولكن ما أنت وهذا جميعــه.. ما مكانك من نفســك.. لماذا لم تســتطع فى يوم من الأيام أن تحترم نفســك فى داخل نفســك.. ساخطة هى نفسك عليــك لا ترضى بك ولا ترضيك، الناس يحترمون هذه الأفدنة العشــرة التى ورثتها عن أبيك، وهذه الأفدنة الخمســة التى اشتريتها وهم لا يدرون كيف اشــتريتها، فلو ألقيت المقادير إليك ما اشتريت فى حياتك شيئًا.. متى قررت شيئًا وأنفذته.. لو لم تكن زوجتك رتيبة ما اشــتريت شــيئًا.. هكذا أنت منذ وجدت فى هذه الدنيا.. ذهبت إلى الأزهر فلم تستطع أن تكمل

علومه وتعثرت دون شـهادة العالمية فيه سـنوات وسـنوات، وكنـت كلما أزمعت أن تذاكر مالت بك نفسـك عن المذاكرة ثم أخـذت تلومك وتلقى عليك ألوان التأنيب والهزء والسـخرية كأنما فى نفسـك نفسـان: إحداهما تلقى بك إلى مهاوى التردد والكسـل والخنوع والضعف، والأخرى تلقى عليك ألوان الهزء والتأنيب والسخرية حتى ما استطعت – وقد جاوزت الخامسة والخمسـين – أن تعمل عملاً واحـدًا ترضى عنه. حتى زواجك لم يكـن بيدك، فلو لم يخطرك أبوك أنه قـد خطب لك، وقرأ الفاتحـة ما تزوجت حتى يومك هذا وحين تزوجت من رتيبة تولت هى جميع شـأنك فهى الآمرة الناهية فى البيت والغيط وتكتفى أنت بالملبس الأنيق والمشـية الوقـور المتئدة واحترام الناس وإقبالهم.

أردت.. نعـم أردت ولكـن الإرادة كانـت تقف بـك دائمًا عنـد الرغبـة ولا تعدوها إلى التنفيـذ.. أردت أن تزوج ابنتك صابحـة من ابن أخيك عمران، ولكـن رتيبة قالت لا، فكانت لا.. حاولت يومذاك أن تصر، ولكنك تعرف أن إصرارك لم يكن فى يوم ما ذا قيمة، وزوجتك أيضًا تعرف أن لا قيمة لإصرارك ولا لرأيك، وتزوجـت صابحة من ابن عم رتيبة، قالت إحدى نفسيك: إنه غنى، قالت النفس الأخرى أنت ضعيف.

أولادك لا يقدمون لك من الاحترام إلا وقفة إن أقبلت عليهم أو قبلــة على اليد إن هم صافحوك، ولكنك ترى فى عيونهم أن الوقفــة أو القبلة إنما هما علامــات بنوة لا علامات احترام أما سمعت مسعود وهو يقول لصابحة.

– أبى.. وهل بيده شىء؟ الأمر كله بيد أمك.

وعبــد المنعم يــوم أراد أن يذهــب إلى الأزهر هــل قال لك شــيئًا..؟ أبدًا، لقد قال لأمه وجهز لســفره وقبل يدك وهو فى ســبيله إلى القاهرة دون أن يبادلك الحديث عن شىءون مسكنه ومصروفاته فى القاهرة، لقد أعد كل شــىء مع أمه.. وســعيد الــذى يزرع الأرض هل قال لك فــى يوم من الأيام ماذا أنتجت الأرض مــن محصول، أو كم نفرًا يســتأجر، أو لمن باع القطن؟ أبدًا.. أبدا كل حديثه مع أمه أما أنت فلا وجود لك ولكن الناس يقفــون لك والأطفال يتوقفون عن اللعب والنســوة يلقين الخمرُ على منتصف وجوههن.

وأنت مدعو فــى كل فرح فى القرية، وصاحب الفرح يحب دائمًا أن يشــرف بأنك شــاهد فى العقد.. شــاهد فــى العقد.. أنت شــاهد فى هذه الحياة جميعًا ثم لا شــىء آخر.. أنت عند زوجتك مهم لتنجب لها أطفالا وتضع تحت يدها خمسة عشر

فدانا تديرهـا.. وأنت عنـد أولادك مهم ليقولوا لـك يا أبا.. ولينتسبوا إلى أب يقف له الناس، ويتوقف الأطفال عن اللعب، وتلقـى له النسـوة الخمر علـى منتصف وجوههـن، وليكون شـاهداً فى عقود الزواج فى القرية.. شـاهد أنت فى الحياة لو سـألت يومًا ما وظيفتك، أتجد شـيئًا أكثر مناسـبة بك من أن تقول شـاهد؟ الوظيفة شاهد.. شاهد فى الحياة لكن نفسك غير اضية عنك! لماذا لا تقف لك نفسـك كمـا يقف الرجال، ولماذا لا تتوقـف عن اللعب بك، كمـا يفعل الأطفال، أو لماذا لا تلقى خمارًا على منتصف وجهها كما تفعل النسـوة.. على النصف الأسـفل من الوجه حيث الفم ليت نفسك تلقى هذا الخمار على فمها فتسـكت عنك وتتركك تنعم بهذا الاحترام الذى تلاقيك بـه القرية جميعًا.. ليت القريـة جميعها لا تحترمنى وأظفر بالاحترام من نفسـى هذه وحدها.. مـا أجمل أن أرضى أنا عن نفسى.. لا يهمنى من بعد ذلك شىء.. مجرد نفسى.. داخلى.. أريـد داخلى هذا أن يرضـى عنى أهذا كثـير؟ ومع ذلك فهو بالنسـبة لى المستحيل أو لعل المستحيل يصبح ممكنا، ولا أنال هذا الرضى من نفسى.. كيف.. كيف.. أأستطيع بعد هذا العمر أن أقول:

– يا رتيبة منذ اليوم لا شأن لك بالأرض أنا الذى سأتولاها.

فتبتسم لى ابتسامتها التى كانت تهدهد بها أطفالنا حين هم صغار وتقول:

– وما له يا شيخ بسيونى.. أنت الكل فى الكل.. كلنا نعيش بنفسك.

ثم تمضى فى سبيلها كما كانت، وكأنى لم أقل شيئًا وأسكت أنا راضيًا فإنى أعلم أنى لو توليت شأن الأرض لفشلت فشلا ذريعًا ماحقًا. ماذا أعرف أنا عن الأرض، بل ماذا أعرف عن أى شىء حتى أمشاج العلوم التى اختطفتها من الأزهر أضعتها فى طريق الحياة نعم أأستطيع أيضًا أن أقول لسعيد:

– يا سعيد اجعل كلامك عن الأرض معى أنا.. لا شأن لأمك به وسيقول:

– وما له يا أبا.. أمرك؟

ثم لن يسألنى بعدها فى شىء أبدًا.. فهو يعلم جهلى.. أأستطيع أن أعرف كم جوالا من السباخ يجب أن توضع فى فدان القطن، أو كم نفرًا يكفون لخف القطن أو تنقيته أو جمعه أو أى شىء..؟ لا شىء إلا مزقًا من العلوم فى الأزهر وتبعثرت منى

على الطريق حتى لم يبق شيء.. ومع ذلك ها هم أولاء الرجال يقفون.. والأطفـال ينتظرون أن أمر حتى يواصلوا لعبهم، وها هـى ذى فتاة جميلة تلقى الخمار على وجهها ريثما تمر بى، ثم ها هى ذى تعفى وجهها منه بعد أن بعدت عنى.

❑❑❑

(١٠)

هنداوى

أفندى عبد المجيد ناظر المدرسة الإلزامية فى القرية، وهو يملك بها ثمانية أفدنة، وهو رجل قصير، فهو يلبس طربوشًا طويلا وهو نحيف فهو يلبس ملابس فضفاضة، فالجاكتة ذات صفين دائمًا وهى متسعة يلبسها فى الصباح مع «البنطلون» ويلبسها بعد الظهيرة وتحتها الجلباب كان جالسًا فى غرفته بالمدرسة حين دخل إليه بخيت أفندى عبد الحفيظ:

– صباح الخير يا حضرة الناظر.

– أهلا بخيت أفندى.. تأخرت اليوم عن الحصة الأولى.

– أنا أجمع القطن، وقد مررت بالغيط أرى الأنفار.

– هـذا كلام لا ينفـع يا بخيـت أفندى، يجـب أن نؤدى وظيفتنا أولا، ثم نلتفت إلى الأشياء الأخرى.. إنك تعرف أننى رجل دقيق.

– الحقيقـة يا حضـرة الناظر أن الأمر الـذى أخرنى ليس الجمع فى غيطى أنا، وإنما غيط حضرتك.

– ماذا به؟

– القطن خرج عند حضرتك، ولا بد من جمعه.
– أترى هذا..؟
– نعــم لا بد أن تبيت على الأنفار مــن الليلة ليبدأ الجمع من الغد.
– لقــد مررت بالقطن البارحة وهو فعلا يســتحق الجمع، ولكن لا أعرف ماذا أفعل..؟ أترك المدرسة.
– ولماذا تتركها؟
– كيف أجمع القطن إذن؟
– مثل كل سنة.
– أنت تعرف يا بخيت أفندى أننى رجل دقيق، وأخشــى أن يقول واحد شيئًا.. أنا رجل دقيق كما تعرف.
– الدقيق يا حضرة الناظر من يعرف مصلحته.
– يعنى.
– يعنى أشــرف أنا على الجمع فــى أرضى وأرضك وتعطى حصصى لعبد الله أفندى وهو رجل طيب لن يقول شيئًا..
– كان يجب أن أجمع القطن قبل أن تبدأ الدراسة.
– لــو كنت فعلت لتركــت لوزًا كثيرًا دون جمع ولســرقه الناس.
– إذن..

– لا بد مما ليس منه بد.

وقبــل أن يتــم الحديث يدخــل إلى حجــرة الناظر عوضين العجمى:

– يا عم هنداوى أفندى عملت على غرامة.

– طبعًا وماذا كنت تنتظر؟

– الولد يجمع القطن معى.

– أنا لا شأن لى.. أنا أنفذ أوامر الحكومة.

– يا عم هندواى أفندى نحن ناس فقراء لا نتحمل الغرامة.

– وأنا رجل دقيق لابد أن أنفذ التعليمات.

– ومن أين أدفعها؟

– هذا ليس شأنى يا سى عوضين.. هذا شأنك أنت.

– لماذا نحن بالذات الذين تجعلنا ندفع الغرامة.. هذا ظلم؟

– أنــا ظالم يا ســى عوضين.. أنت تشــتمنى أثنــاء تأدية وظيفتى.. أنا أودى بك فى داهية.

– يا رجل اتق الله.

– إننى أتقى الله فى كل شىء.. لابد أن أنفذ أوامر الحكومة.. ماذا أقول للمفتش إذا جاء ولم يجد ابنك ولم يجدنى قد حررت له محضرًا؟

– وماذا قلت للمفتش عن ابن عبد العال أبو السيد؟

– إنه يعمل فى أرض البك.
– البك غنى يستطيع أن يدفع الغرامة أما أنا فرجل فقير.
– وأنا ماذا أعمل؟
– كما عملت مع ابن عبد العال.
– لا يا حبيبى أنا رجل دقيق.
– ولماذا لم تكن دقيقًا مع ابن عبد العال.
– ابن عبد العال ابن عبد العال.. أنا حر.
– أنت حر نعم، لكن لا تغرمنى.
– لا تعطلنى أنت عن عملى.
– الغرامة يا عم هنداوى أنا فى عرضك.. كلمه يا سى بخيت أفندى.
– أنت الغلطان يا عوضين.
– أنا الغلطان يا بخيت أفندى؟!
– حضرة الناظر أرسل أمس يشترى منك بيضًا فتبيع له بسعر السوق؟
– وماذا فى هذا يا سى بخيت أفندى؟
– لا حق لك يا بخيت أفندى ما دخل هذا فى الغرامة.
– طبعًا يا حضرة الناظر هذا لا شأن له بالغرامة إنما كان عليه أن يراعى.

– لا.. أبدًا والله.. أنا لا أقبل.. أنا لا أقبل هذا أبدًا.
– تقبل ماذا يا حضرة الناظر.
– اذهب أنت يا عوضين.
– والغرامة يا سى بخيت أفندى.
– أرسل بيضتين بقية بيض البارحة.
– أنا لا أقبل أبدًا.
– لا عليك يا حضرة الناظر.. عوضين رجل طيب.
– ربنا يبقيك يا سى بخيت أفندى.
– أرسل البيضتين.
– أنا لا أقبل.
– سيأتى الولد مهدى بالبيضتين.
– مرة ثانية خل عندك نظر.
– أمرك يا حضرة الناظر.
– مع السلامة يا عوضين.
– والنبى يا سى بخيت أفندى تترك الولد يجمع معى القراطين فى هذين اليومين.
– يجمع معك القيراطين يا سى عوضين.. مع السلامة.. توكل على الله.

– السلام عليكم.

ويخرج عوضين.

– إذن فستجمع لى القطن يا بخيت أفندى.

– مثل كل سنة يا حضرة الناظر.

– أنت تعرف يا بخيت أفندى أنا رجل..

– دقيــق يا حضرة الناظر لــن ينقص من القطن فص واحد..

توكل على الله يا حضرة الناظر.

❑❑❑

(١١)

كان حافظ أفندى خالد جالسًا فى بيته فى الموهن الأخير من الليل مع زوجته فاطمة، وابنته فؤادة، وكان حافظ قد فرغ من الصلاة وكانت فاطمة تصلى ركعات لله لا توجبهن فريضة ولا سنة، وكانت فؤادة تقرأ فى كتاب كبير فى يدها ويسألها أبوها:

– ماذا تقرئين يا فؤادة؟

– حكاية عجيبة يا أبى.

– عم تروى؟

– عن مقتل الحسن بن على.

– كيف قتل؟

– حكاية لا يصدقها العقل.

– احكيها لى.

– أنا يا أبى لا أصدقها.

– قولى أولا ونبحث عن معقوليتها بعد ذلك.

– أرسل معاوية إلى زوجة الحسن واتفق معها على أن يعطيها مبلغًا كبيرًا من المال ويزوجها ابنه يزيد إذا قتلت الحسن.

– أعوذ بالله.

– وسقته السم وأحس به يسرى فى جسده، ثم أحس به يفتك به ثم أحاط به ألم قاتل حتى لقد كان يقول لفظت بعضًا من كبدى، وكنت أقلبه بعود فى يدى وزوجته تشهد، وكأنها لم تفعل شيئًا.

ومات الحسن وذهبت الزوجة إلى معاوية لتنال الجائزة التى وعدها بها.. زواج يزيد والمال الوفير.

– وهل نفذ معاوية وعده؟

– بعض وعده.

– كيف؟

– قال لها: أما المال فهو لك وأما يزيد فإنا نخاف أن تفعلى به مثلما فعلت بزوجك.

– لقد نالت جزاءها.

– إن كانت الحكاية صحيحة، فهى لم تنل جزاءها أبدًا.. كان يجب أن تقتل مئات المرات.. إنها زوجة قتلت زوجها.. لقد أعطته السم بيد لا يشك فى ولائها.. يد زوجته.. إنها روحه الثانية.. حياته.. أتعرف يا أبى لماذا حدثت هذه الجريمة.

– لأن الزوجة كانت امرأة مجرمة.

– هناك سـبب أهم من ذلك، لم يكن زواجها بالحسـن عن حب.. كان أغلب الزواج فى ذلك الحين يتم عن غير حب.

– ومع ذلك لم تقتل كثير من النساء أزواجهن.

– لأنهن لم يتعرضن لمثل إغراء معاوية.. من يدرى ماذا كن يفعلن إذا تعرضن لهذا الإغراء؟

– أكن يقتلن أزواجهن؟

– ما دام الزاوج بلا حب فلا أحد يدرى ماذا يحدث.

قالت فاطمة بعد أن سلمت تسليمتين:

– فيم تتحدثان؟

– ألم تسمعى؟

– كنت أصلى.

– وأذناك.. أين كانتا؟

– أنت تعرف أننى حين أصلى لا أسمع شيئًا.

– احكى لها الحكاية يا فؤاداة.

– ثانية.

– كانت تصلى.

وقبل أن تبدأ فـؤاداة قصتها سمع ثلاثتهم ضجيجًا متخافتًا خارج الباب أعقبه طرق، قال حافظ:

– من؟

وجاء صوت قوى ليس مرتفعًا.
– افتح.
وقال حافظ خائفًا:
– من؟
وجاء الصوت:
– عتريس.
وأعاد حافظ الاسم ذاهلا:
– عتريس؟!
وجاء الصوت مرة أخرى يحمل نفس النبرة:
– افتح.
وقال حافظ لزوجه وابنته:
– ادخلا أنتما.
وحين دخلتا وأغلق دونهما الباب، ذهب إلى باب البيت ففتحه، ودخل عتريس بعد أن قال لرفقة معه لم يتبين حافظ عددهم:
– ابقوا أنتم هنا.
وأقفل عتريس باب البيت الخارجى وقبل أن يقعد سأله حافظ هالعًا:
– ماذا يا عتريس؟
– لا تخف يا عم حافظ. اقعد.

– هل هناك شيء؟

– أنا فى بيتك.. أهكذا تستقبل ضيفًا فى بيتك؟

وقعد الرجلان، وحافظ يشعر بقلبه يكاد يقفز من صدره، فهو وجيب قوى، وهو هلع وخوف وتوجس وراح يلصق الكلمات بعضها ببعض، حتى قال آخر الأمر:

– مرحبًا بك فى بيتى يا عتريس.

– إنها كلمة لا تزيد.

– وقال حافظ فى نفسه، وهل المصائب إلا كلمة لا تزيد، ومرة أخرى راح يلصق الكلمات بعضها ببعض:

– أنا تحت أمرك.

وقال عتريس فى هدوء وقد سرى فى صوته حنين ونعومة لم يتسطع حافظ أن يتبينهما.

– فؤادة.

وقفز حافظ عن كرسيه:

– مالها؟

– أريد أن أتزوجها.

وظل حافظ واقفًا واجمًا فترة طويلة، حتى قال عتريس مرة أخرى:

– ماذا قلت؟

وظـل حافـظ صامتًا مرة أخـرى، وعاد صـوت عتريس إلى خشونته الطبيعية وهو يقول:

– ماذا قلت يا عم حافظ؟

وراح حافظ يرتعش بالألفاظ وهو يقول:

– لكن فؤادة.. فؤادة.

وقال عتريس:

– مالها فؤادة؟

– لا أظنها تقبل.. لا.. لا.. أظنها.. لا أظن.

وقال عتريس فى هدوء عنيف بارد قاس:

– يظهـر أنك لا تتبين الأمر علـى حقيقته.. أنا عتريس.. عتريس.. أتفهـم.. وأطلب منك ابنتك فؤادة لأتزوجها. أتريد أن أضـع لك الأمر بصورة أخـرى.. عتريس حين يريد لابد أن يصـل إلى ما يريد.. أنت عنـدك أرض.. وفى الأرض قطن الآن وأرز وأحيانًا يكون فى الأرض قمح.. وعندك سـاقية.. وعندك بهائـم.. وعندك أيضًا – عند اللـزوم – زوجتك وعندك – عند اللـزوم أيضًا – ابنتك فؤادة نفسـها وأنا عتريس.. لعل الأمور واضحة فى ذهنك الآن.

وفهم حافظ كل الفهم ولكنه عاد يقول:

– ألا أسألها؟

– هـذا شـأنك.. تسـألها أو تأمرها.. اليوم السـبت كتب الكتاب الخميس القادم.

– ولكن.

– أفهمت؟

– نعم.

وخرج عتريس وأقفـل الباب من خلفه وقعد حافظ متهالكًا وراح ينظـر مـن حوله ذاهـلا.. دقائـق قليلـة تم فيها هذا جميعه.. أهذا معقول.. أيمكن أن يتسـع وقت العالم كله ليتم فيـه هذا الانقلاب فـى حياته لكنه تم فـى دقائق.. الحجرة خاليـة.. صامتة.. كأن شـيئًا لم يحدث.. أحدث شـىء؟. هل كان عتريس هنـا..؟ عتريس بأكمله بجميعـه هنا.. فى هذه الحجـرة.. أقال ما قال فعلا.. كيف.. كيف تسـتطيع الدقائق هذه الدقائق الهينة التى يقطعها الزمن فى احتقار واسـتهانة كيف كيف تستطيع أن تقلب حياتى كلها بهذا اليسر.. ما هذا الصمت إذن.. أين الضجيـج الذى كان يجب أن يملأ الدنيا من حولى.. ما هذا السكون.. ما هذا الصمت.. أينقض عتريس على حياتى جميعهـا يختطف معنى هذه الحياة؟ ثم يهوم الصمت

ويشــمل الكون هذا السكون البارد فى غير اهتمام كان شيئًا لم يحــدث.. لقد هدد.. وما كان فى حاجــة إلى تهديد.. إن طلبه وحــده يحمل كل معانــى التهديد وفجأة يفتــح باب الحجرة وتأتى فاطمة وفؤادة وتجلســان وتنظران إلى حافظ ولا تسألانه وينظــر إليهمــا طويلا طويلا وهما شــاخصتان إليه بلا حديث وأخيرًا يقول حافظ:

– فؤادة.

وتدق فاطمة صدرها صارخةً:

– ماذا؟

وتقول فؤادة:

– ماذا يا أبى؟

ويعود حافظ قائلا بنفس النغمة الحانية الواجفة:

– فؤادة..

وتقول فؤادة:

– نعم يا أبى.

ويقول حافظ:

– إنه يريد فؤادة.

وتقول فاطمة صارخة حازمة:

– لا.. لا.. أبدًا.
وتقول فؤادة محاولة أن تظهر عدم مبالاتها:
– ماذا يريد منى؟
يقول حافظ:
– يريد أن يتزوجك.
وتعود فاطمة إلى صراخها.
– لا.. لا..
وتقول فؤاداة بهدوء وثبات:
– لا تخافى يا أمى.. لن يكون هذا أبدًا.
ويقول حافظ فى تداع:
– وستتزوجينه.
وتقول فاطمة:
– ماذا تقول؟
وتقول فؤادة فى هدوئها لا تزال:
– لن يكون هذا.
ويقول حافظ:
– يوم الخميس القادم.
وتقول فاطمة:

– هل تعى ما تقول يا حافظ؟

– لقد هدد بكل شىء.

وتقول فؤادة فى غير مبالاة:

– ليهدد ما شاء.. لن أتزوجه.

❑❑❑

(١٢)

كان

الصباح مشـرقًا وضاحًا، وكانت شـعاعات الشـمس تغمر الكون فتنسـاب منها شعاعات إلى بيت حافظ فلا يحفل منها شـيئًا وكانت فؤادة جالسة تقرأ كتابها وفاطمة تصلى الضحى فى خشـوعها حين طرق البـاب طرقات وادعة مطمئنة وقال حافظ:

– من؟

وجاءه صوت من الخارج:

– أنا فايز يا حافظ افتح.

وصاح حافظ:

– فايز بك.. لحظة يا سعادة البك.. ادخلا.

وكانت فاطمة تصلى فلم تبال أمره بل استمرت فى صلاتها فى هدوء كأن شيئًا لم يحدث، ويقول حافظ لفؤادة:

– سأخرج إلى فايز بك وحين تتم أمك صلاتها نادينى.

وخـرج إلى فايز بك وأقفل الباب من خلفه وفهم فايز بك أن بالقاعة حريمًا لم يتيسـر لهـن أن يدخلن إلى البيت فهو يقبل

تحيـــة حافظ دون تعجب من خروجـــه ويحيى حافظ "طلعت" الذى جاء فى رفقة أبيه.

– أهلا فايز بك.. أهلا طلعت بك.. هذا شرف كبير لماذا لم ترسل لى.

– كيـــف حالك يا حافظ لم أرك من زمـــن بعيد.. ماذا؟ هل نسيت أيام لعبنا ولهونا.

– يا بك العفو.. وإنما خشيت أن أشغلك عن عملك.

– لقاء الصديق حبيب إلى النفس دائما يا حافظ.

وجاء صوت فؤادة:

– تفضل يا آبا.

ويفتح حافظ الباب وهو يقول:

– أهلا فايز بك. أهلا طلعت بك.

ويطمئن المجلس بثلاثتهم ويقول فايز:

– أتذكر أول يوم دخلنا فيه إلى الجامع؟

ويذهـــل حافظ من الإجابـــة لحظات ثم يصحـــو من ذهوله ليقول:

– نعم.. آه.. أيام.

– مالك يا حافظ؟!

وتعلو وجه حافظ قترة وتنقبض سماته ويحس بدوامة تئز فى داخله ويقول:

– لا شىء يا بك.. لا شىء.

– أراك وكأن عاصفة تعصف بنفسك.

– لا شىء يا بك.. أبدًا.. إن مجيئك شرف كبير.

ويلتفت فايز إلى طلعت:

– كنا نلعب أمام الجامع.

وتنداح الكلمات فى وسيع الفضاء ولا يسمع حافظ شيئًا.. كان عتريس هنا.. وقد حدد يوم الخميس.. واليوم يوم الأحد.. أيستطيع هذا البك أن يفعل شيئًا لو طلبت إليه أن يفعل شيئًا لأنزل بى عتريس الويل الآخذ ولأصبحت من غدى بلا ابنة ولا زوجة ولا أرض ولا وجود.. وماذا بيد هذا الرجل أن يفعل؟ إن عتريس يملك السلاح ويملك الليل الأسود ويملك الاختفاء حين يشاء.. أى قوة فى الأرض تستطيع أن تفعل شيئًا أمام النفس المجرمة.. الإجرام لا يرده شىء إلا الإجرام نفسه.. وهذا البك لا يعرف الإجرام ماذا أقول له.. وصحا حافظ من ذهوله على صوت فايز وهو يقول له:

– أنسيت هذا اليوم يا حافظ هل نسيت؟

– نعم... أنسى؟... وهل يمكن أن أنسى؟

وجاءت فؤادة بالقهوة وقال فايز:

– أهلا فؤادة.. كيف أنت؟

– أهلا بك يا سعادة البك.

– لماذا لا تقولين يا عمى.. أنا أحب أن تقولى يا عمى.

– أمرك يا عمى..

وأخذ فايز فنجانه ثم قدمت فنجانًا إلى طلعت وتمت بينهما المصافحة بنظرة وفى النظرة فهم كل منهما ما يريد أن يقول للآخر.

وخرجت فؤادة وقال فايز:

– حافظ لقد جئتك اليوم لأتم أسعد شىء فى حياتى.

– مرحبًا بك فى بيتك يا فايز بك.

– أريد أن أخطب ابنتك فؤادة لابنى طلعت.

– ماذا؟

– إنها أمله منذ زمن بعيد.

وصمت حافظ بعض الحين ثم قال:

– أتدرى أى أمل ضخم تقدمه لى يا فايز بك.

– أنا أدرى أننا صديقان من الطفولة.

– ماذا تظن بى إذا أنا رفضت؟

– ترفض؟

– مرغما يا فايز بك

– ماذا تقول؟

– وأرجوك.. أرجوك.. لمصلحتــك أنت ولمصلحة طلعت ألا يعرف أحد أنك طلبت منى هذا الطلب.

– ماذا بك يا حافظ؟

– كل ما أرجوه منك ألا تقول خطبت فؤادة لطلعت وستعرف كل شىء فى حينه.. أنا لا أريد أن أحملك الهم الذى أحمله.

ودون أن يحس وجد طلعت نفسه يقول:

– إنها زوجتى منذ زمن طويل.

والتفت إليه حافظ مذعورًا:

– ماذا قلت؟

ودون أن يلتفت إليه طلعت قال:

– أنهــا زوجتــى منذ نحــن أطفال فى الملعــب.. هناك فى ســاحة البيــت كنت أحس أنها جزء منــى أو أننى جزء منها وأننا لن يفصلنا شىء فى الوجود وكبرنا وكبر معى هذا الشعور فأصبحت الحيــاة التى أحياها هى حياتها وأصبحت الخفقات

التى يدقها قلبى هى خفقاتها وأصبحت هى الهواء الذى أنشقه والدمـاء التى تمضى فى جسـمى والآمال التـى أبقيها لغدى والذكريات التى أحفظها من أمسى فماذا يمكن أن يحول بيننا.

وقال فايز:

– هناك سر كبير تخفيه يا حافظ.

– كبير بقدر المصيبة التى يحملها هذا السر.. هو سرى أنا فدعنى أشقى به وحدى.

– فلست صديقك إذن.

– بل لأنك صديقى أريدك أن تظل بعيدًا عن هذا السر.

لا أشـعر بالرجولة إذا سمحت لنفسى أن أظل بعيدًا عن سر يحمل المصيبة لك.

لـو كنت أعتقد أن علمك به سـيخفف منه لبحت به لك.. ولكن لا فائدة.

ويقول طلعت وكأنه يتكلم من مكان آخر:

أيًّا كان الأمر فسأتزوج من فؤادة.

❑❑❑

(١٣)

وحل يـوم الخميـس وكان لابـد لحافظ أن يدعـو المأذون وشـاهدين وقـام حافـظ فى باكـر الصبـاح ليلحق بثلاثتهـم قبل أن يخرجوا من بيوتهم وقصـد أول ما قصد إلى الشيخ عبد التواب وكان الشيخ يتناول إفطاره.

– صباح الخير يا عم الشيخ عبد التواب.

– أهلا وسهلا سى حافظ أفندى.. تفضل معنا.

– شكرًا سبقتك.

– نشرب القهوة معًا إذن.

– والله يا عم الشيخ عبد التواب عندى بعض أعمال وأريدك فى كلمة وأمضى.

– يا رجل نشرب القهوة.

– مرة أخرى إن شاء الله.

– أمرك.

– نتعشى معًا الليلة فى بيتنا.

– أنا تحت أمرك.. هل هناك مناسبة؟

– ستعرف فى الوقت المناسب إن شاء الله.
– أمرك.
– وأحضر معك الدفتر.
– هل سنفرح إن شاء الله.
– أرجوك لا تسأل وستعرف كل شىء فى حينه، ولا تذكر لأحد أنى دعوتك الليلة.
– لماذا يا سى حافظ أفندى.. أعلنوا الزاوج ولو بالدف.. لماذا لا أخبر أحدًا.
– أرجوك يا عم الشيخ عبد التواب لمصلحتك لا تخبر أحدًا.
– لمصلحتى أنا.
– نعم لمصلحتك أنت.. أرجوك.
– المسألة فيها سر يا سى حافظ أفندى.. أولا أنت جئتنى مبكرًا وأنت تعلم أنك لو كنت تأخرت لوجدتنى عند عبد الملاك دون حاجة منك إلى التبكير.
– سبحان الله يا شيخ عبد التواب. وهل نقرأ فى سورة عبس.. لا أريد أحدًا يعرف أنك قادم عندى الليلة.
– لماذا؟
– لا إله إلا الله.. ستعرف.

– لكن الزواج لا يختفى.. لابد أن يذيع أمره.

– سـيذيع يا أخى سيذيع ويشـيع ويملأ الدنيا ولكن الليلة فقط لا أريد أحدًا أن يعرف أرجوك.

– لابد من سبب.

– ستعرفه.

– أمرك.

– لا تقل لأحد.

– أمرك.. ولكن مثل هذه الزواجات لها أجر خاص ياسـى حافظ أفندى.

– ما سـتطلبه ستأخذه يا شـيخ عبد التواب كل ما ستطلبه ستأخذه.

– أمرك.

– سلام عليكم.

– وعليكم السلام.

وخرج حافظ إلى المدرسـة، وكان هنداوى أفندى يبدأ يومه ودخل إليه حافظ:

– أهلا حافظ أفندى.. مرحبًا.. خطوة عزيزة وغريبة أيضًا.

– أهلا بك يا هنداوى أفندى.

– هذه أول مرة تشرف فيها المدرسة.. أنا رجل دقيق، هذه أول مرة تشــرف فيها المدرسة الفراش مشغول بضرب الجرس دقيقة واحدة ويحضر لنا القهوة.

– هى كلمة وأمضى.. ورائى أعمال كثيرة.

– أفندم.. أنا تحت أمرك.

– نتعشى معًا الليلة.

– نتعشى جدًّا، لكن ما المناسبة؟

– ستعرفها فى حينها.

– وهو كذلك، لكن لابد أن تشرب معى قهوة الصباح.

– شــكرًا يا هنداوى أفندى.. أنا فى انتظارك.. لا تتأخر.. و.. و..

– وماذا أيضًا؟

– أفضل أن تجعل أمر هذه الدعوة سرًّا بيننا.

– سرك فى بير يا سى حافظ أفندى ولكن ما المناسبة؟

– أخشــى أن يســتاء زملاؤك أننى لم أدعهم.. والدعوة فى الواقع مقصورة على أفراد قلة من الأصدقاء.

– ما تراه يا حافظ أفندى، ما تراه.

– السلام عليكم.

– وعليكم السلام.

وحين ذهب إلى الشـيخ بسيونى وجده يوشك أن يخرج من البيت، فاستقبله الرجل على الباب:

– أهلا حافظ أفندى تفضل.

– أراك كنت خارجًا.. أخشى أن أعطلك.

– تعطلنى عن ماذا؟ وظيفة ولا عمل.. تفضل.

وحين دخلا البيت صاح الشيخ بسيونى:

– القهوة يا رتيبة.

وجاء الصوت من الداخل:

– حاضر.

واستقر المقام بالرجلين:

– أهلا وسهلا حافظ أفندى.

– أهلا بك يا عم الشيخ بسيونى.

– كيف حال الزراعة عندك؟

– على ما يرام.

– الفـدان عندى رمى سـبعة قناطير مـن القطن.. كم رمى الفدان عندك؟

– رمى.. رمانى فى داهية.

– ماذا؟

– ماذا؟

– تقول ماذا رمى الفدان عندك؟

– لا أدرى.

– مـاذا تقـول يا حافظ أفندى.. أنت فـلاح لا نظير لك فى الجهـة وتقول إنك لا تعرف كم رمى الفدان عندك.

– لا مؤاخذة يا عم الشيخ عبد التواب.

– ماذا.. ماذا تقول؟

– لا مؤاخذة يا عم الشـيخ بسـيونى.. أنا مشـغول بعض الشىء.

– ماذا بك؟

– لا.. لا شىء.

– يا أخى إن النظرة إلى ابنتك فؤادة وإلى غيطك تشرح القلب الحزين فماذا يضايقك؟

– نتعشى معًا الليلة يا شيخ بسيونى.

– وجب يا سيدى، ولكن ماذا بك؟

– لا عليك.

– ها سيتعشى معنا أحد؟

– قليلون.
– وهو كذلك.
– أستأذن أنا.
– القهوة.
– آه القهوة.. ألا يمكن أن تؤجلها؟
– أتريد الحاجة رتيبة تعمل لها حكاية.
– حكاية سوداء.
– ماذا؟
– ماذا؟
– ماذا تقول يا حافظ أفندى؟
– لا.. لا شىء أنا منتظرك يا شيخ بسيونى لا تتأخر.
– طيب انتظر القهوة.
– أمرك. سلام عليكم.
– والقهوة؟!
– أنا منتظرك. سلام عليكم.

وخرج حافظ إلى غيطه، لم يذهب إلى البيت وهناك ظل رانيًا إلى الحقل لا يكاد يحس أنه حقله لم يسأل أحدًا ممن يعملون به عن شىء.. وحين جاءه من يقوم بالجمع يريد أن يكلمه فيما

جمعوه فــى يومهم تركه وانصرف إلى أقصى الغيط وحين لحق بــه تركه إلى النهــر وجلس فى ذهول تحــت الصفصافة وراح يلقى ببصره إلى النيل هذه دمائــى وهى اليوم مهدرة.. دمائى مهدرة ولا تغذى إلا عتريس.. عتريس.. عتريس..

وأصبــح الوقت ظهرًا ثم أضحى الظهــر عصرًا وصار العصر إلى الغروب وحين رأى الشــمس تــودع النيل والدنيا من حوله قام يمشى وانيا إلى بيته وفى صمت حزين دلف إلى البيت وفى صمت حزين اســتقبلته زوجته واستقبله البيت إلا فؤادة التى كانــت تبدو وكأن ما هــم فيه لا يمت إليهــا بصلة هادئة هى مطمئنــة لا تقول شــيئًا ولا يبدو عليها حــزن أو ألم أو صراع وأقبل هنداوى أفندى وحاول أن يجرى الحديث ولكنه لم يجد من حافظ مســتمعًا ولا متحدثًا وما لبث أن أقبل الشيخ بسيونى فاتصــل الحديث بينه وبين هنداوى وقليــلا ما اتصل فما لبث الشيخ عبد التواب أن جاء ومعه حافظة أوراقه وقال هنداوى:

– أهلا شــيخ عبد التواب. جئت ومعك الحافظة فهل ترى كنت فى زواج أم طلاق؟

وتلجلج الشيخ عبد التواب وقال حافظ أفندى:

– ستعرف حالا يا هنداوى أفندى.

– أهناك ســر إذن.. لا يا سيدى لا بد أن تخبرنا بالسر فأنا كما تعلم وقال الشيخ بسيونى مقاطعًا:

– رجل دقيق.. لم يقل أحد شــيئًا ولكن ما دخل الدقة فيما نحن فيه.. لقد قال لك ستعرف حالا.. فما البأس أن تنتظر؟

– وماذا أنتظر؟

وقبــل أن يجيبــه أحد سمع أربعتهم فــى الخارج ضجيجًا متخافتًا صحبــه طرق على الباب وفتــح حافظ ودخل عتريس وأقفل الباب من خلفه ونظر ثم قال لحافظ:

– إذن فقد أحضرت أنت الشهود.. أتعبت نفسك.. إن معى أيضًا شهودى.

كانت المفاجأة مذهلة للثلاثــة أما هنداوى فوثب واقفًا وأما الشــيخ عبد التواب فتنحنح وســعل وما لبث أن قال فى صوت متعلثم:

– أهلا.. أهلا وسهلا ومرحبًا.

أما الشــيخ بسيونى فقد ظل جالسًا صامتًا مترددًا فيما يقول أو يفعل وحين استقر رأيه على الوقوف كان الجميع قد جلسوا.

وقال عتريس فى صوت حازم:

– ننتهــى من الأمر بســرعة فمــا أحب أن أطيــل مكوثى بالقرية، توكل على الله يا شيخ عبد التواب.

– نعم.. أنا تحت أمرك.. ماذا تريدنى أن أفعل؟
– ألم تعرفوا لماذا جئتم؟
وقال الشيخ بسيونى:
– قال لنا نتعشى معًا الليلة.
– فقط؟
– فقط؟
– هيه.. لقد جئتم لتكتبوا كتابى على فؤادة.
قال الشيخ عبد التواب فى سرعة:
– وما له؟ نكتب.
وقال عتريس:
– فماذا تنتظر؟
وقال الشيخ عبد التواب:
– توكلنا على الله نكتب على بركة الله.. الوكالة يا سى حافظ أفندى وكأنما لم يكن حافظ بالحجرة فهو ذاهل صامت لا يجيب ويكرر الشيخ عبد التواب:
– يا حافظ أفندى
ويقول حافظ وكأنه يرتد من بئر عميقة:
– نعم.

– الوكالة.

– حاضر.

ويقوم حافظ قائلا فى استسلام:

– تفضل يا هنداوى أفندى تفضل يا شيخ بسيونى.

ويقوم الرجـــلان وراء حافظ ويدلفان إلى باب البيت ويمضى حافـظ ذاهلا حتى ما يعى أن يصيـــح بأهل بيته أن يختفوا عن أعين الرجال وقبل أن يصلوا إلى حجرة فؤادة يستوقف هنداوى حافظ وينظر حوله ليزداد تأكدًا أنه قد بعد عن سمع عتريس:

– لماذا فعلت بنا هذا يا حافظ أفندى؟

ويقول حافظ فى أسى:

– إن كان لابد لها أن تتزوج من عتريس فلا أقل من أن يكون الشـــهود من العدول.. أكنت تريد شهود بنتى الشيخ إسماعيل أم عبد المعطى أم عثمان شاكر.

– ولكن نحن ما ذنبنا أنا والشيخ بسيونى؟

وقال الشيخ بسيونى:

– نعم.. صحيح.. ما ذنبنا؟

– وماذا ألم بكما؟

قال هنداوى:

– نشهد على زواج عتريس.

وقال الشيخ بسيونى:

– اسكت لا يسمعك.

وقال حافظ:

– إنكما تشهدان على زواج ابنتى فؤادة.

وقال هنداوى:

– لا يا حافظ أفندى اعفنى.

– ماذا؟

– اعفنى.

وقال الشيخ بسيونى:

– ماذا تقول؟

– أقول إننى لا أشهد.

قال حافظ:

– أهكذا؟

وقال هنداوى:

– نعم.

فقال الشيخ بسيونى:

–إذن فلن تشهد؟

– نعم.
– فاخرج إذن.
– ماذا؟
– اخرج ولا تشهد.
– اخرج.
– طبعًا.. اخرج أنت، وسيأتى بدلا منك الشيخ إسماعيل العصفورى أو عبد المعطى العجل أو عثمان شاكر.
– اخرج أخرج.
– وماذا تريد أن تفعل؟
– أخرج؟! وماذا أقول لعتريس؟
– إنك لا تريد أن تشهد على زواجه.
– يا نهار أسود من الحبر.. أنا أقول هذا لعتريس؟
– وماذا تريد أن تفعل إذن؟
وقال هنداوى فى حزم:
– هيا بنا يا حافظ أفندى.
وقال حافظ فى يأس:
– إلى أين؟
– إلى ابنتك فؤادة.

وتقدم حافـظ إلى باب فؤادة، وطرق البـاب وجاءه صوتها الهادئ:

– ادخل.

قال حافظ:

– معى ناس يا فؤادة.

قالت فى هدوء:

– تفضلوا.

ودخل ثلاثتهم، وقال هنداوى:

– مساء الخير يا ست فؤادة كيف أنت؟

– مساء الخير يا عم هنداوى أفندى.

وقال الشيخ بسيونى.

– مبروك يا بنتى.

وقالت فؤادة:

– بارك الله فيك يا عم الشيخ بسيونى.. علام؟

– علام.. ألا تعرفين؟

وقال حافظ:

– عمك الشيخ بسـيونى وعمك هنداوى أفندى جاءا ليأخذا منك الوكالة.

وقالت فؤادة وكأنها لا تدرى شيئًا عن حديث أبيها:

– الوكالة.. لماذا؟

قال أبوها:

– لزواجك.

– ممن؟

قال أبوها:

– من عتريس.

– ولكنى قلت إنى لن أتزوجه.

وقال حافظ:

– يا بنتى وهل بيدنا؟

– إنه بيدى أنا.

وقال حافظ:

– يا بنتى يقتلنا جميعًا.

– هو حر، ولكننى لن أتزوجه، ولن أعطيك الوكالة.

وقال الشيخ بسيونى:

– أنت يا بنتى فاهمة الذى تقولين أو الذى تفعلين.

– كل الفهم.. أنا أرفض أن أعطى الوكالة لتزويجى من عتريس. أنا فاهمة تمامًا ما أقول وما أفعل.

قال هنداوى:

– يا بنتى لأجل خاطر أبيك.. لأجل خاطرنا.

قالت فؤادة:

– أفاهم أنت ما تقول يا عم هنداوى أفندى.. أتزوج.. أتفهم معنى أتزوج؟ أصبح زوجًا.. أصبح نصفًا لإنسان آخر.. أصبح بيته وحياته وشريكته فى إنجاب أطفال أحياء إلى هذه الدنيا.. أتزوج.. أتفهم معنى كلمة أتزوج لأجل خاطر أبى أو خاطرك أو خاطر الشيخ بسيونى.. أتزوجه لأجل خاطر.. يا هنداوى أفندى.

– يعنى لا.

– طبعًا لا.

وقال الشيخ بسيونى:

– لا وكالة.

– لا وكالة.

– إه.. ما على الرسول إلا البلاغ.. هيا بنا يا هنداوى أفندى.. هيا ينا يا حافظ أفندى.

ويقول حافظ:

– يا ابنتى فكرى.

– وبلا تفكير يا أبى.

– الأمر لله.

ويخــرج ثلاثتهم إلــى الدهليز الذى كانــوا يقفون به قبل دخولهم إلى حجرة فؤادة، ويهم الشــيخ بســيونى فى مشيته يتبعه حافظ فى تفكير عميق ويقول هنداوى:

– انتظر يا شــيخ بسيونى! انتظر يا حافظ أفندى! إلى أين أنتما ذاهبان؟

ويقول الشيخ بسيونى:

– وإلى أين يمكن أن نذهب.. إلى عتريس.

ويقول هنداوى:

– وماذا أنتما قائلان له؟

ويقول الشيخ بسيونى:

– ما حصل؟

– ما الذى حصل؟

– فؤادة رفضت أن تعطى الوكالة.

– هكذا؟

– أليس هذا هو ما حصل؟

– وسيصدق؟

– يصدق أو لا يصدق.. هذا ما حصل.

– أنت رجل طيب.

– ماذا تريد أن تقول؟

– لـو قلت لـه إنها لا تريده فسـيقول إن أباهـا هو الذى أوصاها بهذا.

– ولكنا شهود على أن أباها حاول بكل جهده.

– أتعتقد أنه سيقبل هذا.

– يقبل ماذا؟

– يقبـل أن نشـهد نحن أنا وأنت على رفضها ويسـكت.. أيقبل أن تهـان كرامته أمامنا، ويتركنـا نحكى للناس كيف انتصرت عليه فؤادة.

– وما الذى يجعلنا نقول للناس؟

– وما الذى يجعله يصدق أننا لن نقول للناس؟

– نحلف له.

– أنت رجل طيب.

– وماذا تريد أن تفعل؟

– أنا رجل دقيق.

– أهذا وقته يا هنداوى أفندى؟

– نقول إن فؤادة وكلت أباها.

ويصيح حافظ:

– ماذا.. ماذا تقول يا هنداوى أفندى؟

– أنت أبوها.

– ولكن العقد لا يصح.

– هذا شأن المشايخ.. إنما نحن نفعل. ما علينا.

ويقول الشيخ بسيونى:

– أهذا ما علينا أن نفعله؟

ويقول هنداوى:

– أليس هذا خيرًا من أن يقتل فؤادة؟

ويقاطعة حافظ:

– يقتل فؤادة؟!

– علـى الأقل يقتلها، إن لم يمثل بها ويلحق بها حضرتك والسـت حرمك.. وطبعًا نحن سـنقتل قبـل أن نخرج من باب البيت.

يقول الشيخ بسيونى:

– وكنت تريد ألا تشهد؟!

– كنت ذاهــلا عن الموقف.. لقد تبينت حقيقة الأمر حين قلت لى أخرج وقل إنك لن تشهد.. وضح الأمر تمامًا أمام عينى وأنا كما تعرف..

– وقاطعه حافظ:

يقتل فؤادة.

– وماذا تظنه سيفعل بمن ترفضه؟

– لقد هدد بذلك فعلا.

– وهل هو محتاج إلى تهديد.. إنه عتريس!!

– وماذا هو فاعل بها إن ذهبت معه إلى البيت.

– أتظن أنها ســتقول له إنها ليست زوجته.. إنها جريئة لأنها معك ومعنا.. أما أمامه..

– وحينئذ.

– وحينئــذ يصبــح العقــد صحيحًا.. أليس كذلك يا شــيخ بسيونى.

– نعم يصح العقد. تكتمل شروطه.. برضائها تتم شروطه.

– إذن.

– إذن هى وكلتك. أليس كذلك يا شيخ بسيونى.
– نعم وكلت أباها.
وسأل الشيخ عبد التواب:
– هيه.
وقال هنداوى:
– وكلت أباها.
– هل وكلت أباها يا شيخ بسيونى؟
– نعم وكلت أباها.
– هل وكلتك يا حافظ أفندى.
– آه.. نعم.. نعم وكلتنى.
– مد يدك.. هات يدك ياسى عتريس.. بسم الله الرحمن الرحيم.. قال سبحانه وتعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الروم: الآية ٢١] صدق الله العظيم.

وقال عليه الصلاة والسلام «تناكحوا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة» قل يا سى حافظ أفندى.. زوجتك موكلتى

فؤادة حافظ البكر البالغة على سـنة الله ورسـوله وعلى مذهب الإمام أبى حنيفة وعلى المهر المسمى بيننا. قل يا سى عتريس قبلت زواجها.

❑❑❑

(١٤)

حتى

خرج عتريس بعد أن قال لحافظ:

– سأنتظرها بالخارج وأريدها وحدها.

ودخل حافظ إلى ابنته!

– هلم يا فؤادة.

– إلى أين يا أبى؟

– إلى بيت زوجك.

– لا يمكن. أنا لم أعطك الوكالة.

– أنا أبوك، وقد زوجتك.

– وأنا لا أترك بيتى هذا.

– لم يصبح هذا بيتك.

وألجمتها الكلمة حينًا، ثم قالت:

– فأنت تريدنى أن أذهب معه؟

– وستذهبين.

– حسنًا يا أبى سأذهب.

وقالت فاطمة:

– أتذهب وحدها.

وقال حافظ:

– إنه يريدها وحدها.

– أمر الله.. مع السلامة يا ابنتى.

وحين حاولــت أمها أن تضمها انتفضت وقصدت إلى الباب لا تلتفت وراءها وقالت فاطمة:

– ألا تأخذين ملابسك.

وقال حافظ:

– نرسلها لها فى غد.

وقالت فاطمة:

– أين نرسلها.. وهل نعرف أين تقيم.

ولــم تنتظر فــؤادة، بل أخذت طريقها إلــى خارج البيت.

وحين ظهرت من الباب قال لها عتريس فى صوت حالم:

– اتبعينى.

* * *

وحيــن بلغــوا البيت، وخلــت الحجرة بفــؤادة وعتريس اتخذت فؤادة مكانها علــى أريكة لاحظت أنها مغطاه بحرير

جديد، وسكتت كأن ما هى فيه لا يعنيها. اتخذ عتريس مكانه بجانبها على الأريكة جاعلا وجهه لها.

– لو تدرين أى أمل كبير أحققه بجلوسك هذا.. لقد عشت عمرى كله أحلم بك جالسة معى.. لا تدرين كم أحبك، ولا تدرين أى سعادة وهناء سأقدمه إليك. لو تدرين؟!!

لقد عشت عمرى كله وأمنيتى الكبرى هى أن أتزوج بك. منذ أنا طفل صغير.. كنت أتمنى أن أكون صديقك وشب معى الحب وكبر وطغى على كل أمنياتى، حتى لقد كنت أحب أن أتمتع به أمنية كبرى وأصبر وأتمتع بالصبر.. واليوم تحقق الحلم.

وفى هدوء قالت فؤادة:

– بل لم يتحقق شىء.

– تحقق أملى الكبير وتزوجتك.. اغفرى لى الطريقة التى تزوجتك بها، ولكن لم تكن أمامى طريقة أخرى.. أرأيت.. الغنى يخطب ويقدم غناه ليشفع له فى الزواج. والشباب الجميل يقدم شبابه وجماله، وأنا أملك القوة، وقد كانت شفيعى لأتزوج منك.. تغفرين لى هذا أليس كذلك.. لقد جعلتها وسيلة لأتزوج منك، وهذا دليل على حبى الكبير لك.. وأرى الوسيلة كانت ناجحة، وها قد تزوجت منك.

قالت فؤادة فى نفس هدوئها:

– بل أنت لم تتزوج منى.

– طبعًا أنت لا تحبيننى الآن.. وكيف كان يمكن أن تحبينى، كنت أراك ولا ألعب معك ونحن أطفال لأن جدى كان يشغلنى طوال الوقت الذى لم أكن فيه بالمدرسة، حتى إذا كبرت ظللت مقيمًا معه هنا، ولم أكن أذهب إلى البلدة إلا فى القليل النادر.. وكثيرًا ما كنت أختلق الحجج لأذهب إلى البلدة وأراك فأنت لم تعرفينى، ولكنك طبعًا كنت تسمعين بى.. وعلى كل حال أنت لا تحبيننى الآن، وليس المفروض أن تحبينى، ولكن مع الأيام ستعرفين كم أحبك، وسترين أننى سأعيش لأوفر لك السعادة والهناءة، وستعرفين أننى أعظم الأزواج حبًّا لزوجته.

وفى بساطة عادت فؤادة تقول:

– ولكننا لم نتزوج.

– سيأتى الحب.. سيأتى رغم أنفه.. سوف أجعل طلباتك أوامر، وسوف تجدين نفسك مع الأيام مضطرة أن تحبى زوجك.

وعادت فؤادة تقول:

– لكنك لست زوجى.

– أضايقتك الطريقة التى سـلكتها للزواج منك.. فأنا أعتذر لك.. دعينى أقبل يدك.. وانسى ما كان ولنبدأ حياة جديدة بين زوج وزوجته هات يدك.

ونترت فؤادة يده فى سرعة ودون غضب وهى تقول:

– لسنا زوجًا وزوجة.

وصمت عتريس لحظات ثم قال:

– أكل هـذا لأننى أرغمت أباك علـى أن يزوجنى بك.. ألا يدل هذا على حبى.. لماذا كل هذا؟

– كل ماذا؟

– كل هذا النفور والغضب؟

– أنا لم أنفر ولم أغضب.

– فما قولك إننا لسنا زوجين؟

– إننا لسنا زوجين.

– والكتاب؟

– باطل.

– والشهود؟

– مزورون.
– هل أنت واعية ما تقولين؟
– تمام الوعى.
– ما الذى تعنين؟
– أعنى أننى لم أوكل أبى ليزوجنى منك.
– فكيف زوجنى منك؟
– خوف.
– والعقد؟
– باطل.
– والشهود؟
– خوف.
– فأنا لست زوجك؟
– لا.. لست زوجى.
– تزويج أبيك؟
– باطل.. يجب أن يتم الزواج بموافقتى، وأنا لم أوافق.
– أرغمك على الموافقة.
– لا تستطيع.

– أقتلك.

– تستطيع، ولكنك لا تكون قد تزوجت منى.

– أنا لك بالقوة.

– لعلك تستطيع أيضًا، ولكنك لا تكون قد تزوجت منى.

– هراء.. هراء ما تقولين.

– وأين الهراء فيه؟

– كيف قبل أبوك هذا؟

– وماذا تظنه فاعلا.. خاف أن تقتلنى.

– إذن أقتلك.

– لا تحسب أنك تخيفنى بهذا التهديد. فأنت لا تستطيع أن تقتلنى، وإذا قتلتنى فإنى لن أموت.. أنا أمل فى نفسك، فكرة فى ضميرك.. الزواج منى حلم طفولتك وصباك وشبابك. إذا قتلتنى فسأظل فى نفسك أملا وفكرة وحلمًا.. وسيظل الحلم حلمًا لم يتحقق.

– أقتلك.. أقتلك.

– لن أموت.. مهما تقتلنى فلن أموت.

– أقتلك.. أقتلك.

– الفكرة لا تموت.

وترك الغرفة وخرج هو يصرخ.

– ولكنى سأقتلك.. سأقتلك.. سأقتلك.

❑❑❑

(١٥)

وجد الشـيخ إسـماعيل الصفورى وعبد المعطـى العجل وعثمان شاكر جالسـين بالقرب من الباب الخارجى فصاح بهم دون أن يلتفت إليهم:

– هلم بنا.

وقام الرجال لم يسـألوه إلى أين، وسار فساروا من خلفه، وقبل أن يبتعدوا قال عبد المعطى:

– أنأخذ معنا بعض الرجال.

وقال وهو سائر:

– نعم.

وتخلف عبـد المعطى، وما هى إلا لحظات حتى كان جمع كبير يتخـذ طريقه إلى القرية. وشـملهم الصمت فترة طويلة حتى قال عتريس فجأة:

– يا شيخ إسماعيل.

– نعم.

– أبوها كذب على.. زوجها منى وهى لم تعطه الوكالة..

– أهكذا.. عجيبة!!
– أتظن أننى أقول لك هذا لتقول لى عجيبة؟!
– هى عجيبة على كل حال!
– هل الزواج صحيح أم لا.. ألم تكن شيخًا؟
– صحيح طبعًا.. ألم يزوجها أبوها منك.. صحيح طبعًا.
– هل أنت متأكد؟
– كل التأكد.
– سنرى.
– ماذا ترى.. الزواج صحيح.
– سأسأل أباها أولا..
ولم يكن حافظ نائمًا حين طرق الباب:
– هل زوجتنى بنتك دون أن تعطيك الوكالة؟
– إذن فهى مصممة.
– مصممة.. إذن فهى لم تعطك الوكالة.
– ماذا بيدى يا سى عتريس؟
– أتظن أن هذا يخيل على.
– ما الذى يخيل عليك؟

– دبرت هذا جميعه.

– أنا لم أدبر شـيئًا.. لو كنت دبرتـه لقلت فى وقت كتب الكتاب إنها لم تعطنى الوكالة.

– دبرت هذا جميعه وستلقى جزاءك.

وحين خرج قال لعبد المعطى:

– أغرقـوا أرض القطـن عنـد حافظ وهنداوى وبسـيونى، وأحرقوا أرزهم أيضًا.

ومضى هو وإسماعيل الصفورى وعثمان شاكر وبعض الرجال وفجأة التفت إلى عثمان شاكر:

– ألم تكن وكيل محام.. هل العقد صحيح أم غير صحيح؟

– صحيح قطعًا.

– هل أنت متأكد؟

– طبعًا.

وفكر أن يذهب إلى الأسـتاذ عليوة ولكنه لسـبب لا يدريه قال لإسماعيل:

– أرسل رجلا إلى بيت إنعام يرى إن كان عندها أحد أم لا؟

وفى دهشة سأل إسماعيل:

– تقصد إنعام زوجة رشدى.

– لقد طلقا. أليس كذلك؟

– نعم، فقط أردت أن أتأكد أنك تريدها هى.

– نعم هى من أريدها.

وحين عاد إليهم الرسول يخبرهم أن إنعام وحدها.. قصدوا إلى بيتها، قال عتريس وهو يدخل:

– انتظروا هنا.

ودخل وأقفل الباب من خلفه، والتفت عثمان إلى إسماعيل:

– هذه وظيفة جديدة علينا يا أبو السباع.

– مبروكة إن شاء الله.

– وقفنا هذه الوقفة، وهو يتزوج وقلنا لا بأس. أما الآن.

– الفارق بسيط يا أبو عفان.

– بسيط.. بسيط؟!

– الزواج كان بعقد مشكوك فيه.. أما العقد هنا فصحته مؤكدة.

قالت إنعام:

– أهلا وسهلا.. خطوة عزيزة يا أبا الرجال.

– أهلا بك.

– طالما تمنيت أن تشرفنى.

– وكيف وأنا مشغول وأنت مشغولة.

– بأمرك أكون غير مشغولة.. أنا تحت أمرك دائمًا.

– حفظت.

– كل مـا أرجوه أن تكثر من هذه الزيارات.. اجعل سـاعة لقلبك وساعة لربك.

– لربى؟!

– أقصد لعملك.

– آه!

– أنت مع شـغلك هـذا الدائم محتاج لمـن تزيل عنك هم العمل ومسئولياته.

– قالت إنها لم تعط الوكالة.

– نعم؟

– لا.. لا شيء.

– أهلا..

واقتربـت منه ولـف ذراعه حولها فتداعـت بين أحضانه فقبلها وقبلته.. ثم عـاد فقبلها وقبلها وقبلها.. ثم ما لبث أن انتفض واقفًا.

– لا.. لا فائدة.

– ماذا يا سيد الرجال.. أترانا لم نعجب.
– أنا مشغول الفكر يا إنعام.. لا تؤاخذينى.
– أنا تحت أمرك دائمًا.
– كم تريدين؟
– أبدًا.
– قولى كم ولا تعطلينى.
– لا آخذ منك شيئًا أبدًا.

رمى لها خمسين قرشًا، وخرج وتبعه رفاقه صامتين.. وراح يسلك بهم دروب القرية وهو لا يبين عن مقصده حتى بلغوا بيت عليوة المحامى.

– هل العقد صحيح؟
– لا. غير صحيح.
– ماذا.. ماذا تقول؟
– العقد غير صحيح.

مالى كأنى أواجه مفاجأة. لقد كنت أعرف.. كنت أعرف ولكن.

– كيف تجرؤ.. كيف تجرؤ.
– علام أجرؤ.. ليس أنا الذى يقول هذا.. إنه الشرع.. العقد غير صحيح..

– كيف تجرؤ؟

– لقد تزوجت على مذهب أبى حنيفة. أبو حنيفة هو الذى قـال هذا.. العقد غيـر صحيح.. لابد مـن رضائها حتى يصح العقد.

– ولكن أنت كيف تجرؤ؟

– ماذا تريدنى أن أقول؟

أين مفتاح هذه الخزانة؟

– ماذا؟

– أقول مفتاح هذه الخزانة.

– وما شأن الخزانة بالعقد؟

– هات المفتاح.

– يا سى عتريس حرام عليك.. إنها شقاء العمر كله، وأمل العمر كله.. حياتى الماضية والآتية فى هذه الخزانة.

– هات المفتاح.

– أنا ما ذنبى.

– هات المفتاح.

❑❑❑

(١٦)

لم ينتظر عبد الغنى حسون حتى يرد الشيخ إبراهيم تحيته، وإنما راح يلقى له الأخبار كأنه سيل منهمر ولم ينتظر الشيخ إبراهيم أن يعلق عبد الغنى حسون على ما رواه من أخبار وإنما قام من فوره قاصدًا إلى بيت حافظ وبجانبه عبد الغنى حسون يفصل من الأخبار ما أجمله.. الحقول الغرقى والأخرى المحترقة وأموال عليوة التى انتهبت، والشيخ ماض فى طريقة فى حزم لا يعلق بشىء ولم ينتظر ترحيب حافظ:

– أيفعل أحد بابنته ما فعلت؟

– وماذا أفعل يا عم الشيخ إبراهيم. خفت عليها من القتل.

– وقال الشيخ إبراهيم فى صوت مرتفع حاد:

– ترمى بها إلى رجل لم تتزوج منه خشية موتها.. لقد قتلتها.

وسمعت فاطمة الحديث فدارت بها الأرض.. لم تتزوج منه، وواصل الشيخ إبراهيم حديثه:

– كيف تقبل هذا يا حافظ أفندى.. كيف تقبل هذا؟

– قالوا إنها إذا رضيت صح العقد.

– وإذا لم ترض؟؟

– وماذا كنت أفعل؟

– لا بد أن تسترد ابنتك.

– كيف.. كيف أستردها.. إنها عنده.. فى بيته.. عند عتريس.. هناك السلاح والعصابة بأكملها. كيف أستردها؟

– ابنتك فى بيت رجل ليس زوجها.. وهى وحدها ماذا تريد أن تفعل.. تظل ساكنًا.

– وماذا يمكن أن أفعل؟!

– كل شىء.. مت.. مت وأخرج ابنتك من بيت رجل ليست على ذمته.

ولم تنتظر فاطمة بل خرجت إلى حيث الرجال جلوس:

– أنا أذهب.

وصاح حافظ:

– أنت.. أنت يا فاطمة.

– لا بد أن أكون بجانب ابنتى الآن.. إنها لن تحتاج إلى أحد قدر حاجتها إلىَّ الآن.. الآن.

– وكيف تذهبين؟

– أذهب.

– نحن لا نعرف الطريق.

– نحن لا نعرف الطريق.

– اسأل عبد الصادق.. أليس صديقك؟

– وهل يرضى أن يدلنا؟

– أنت يا عبد الغنى تعرف الطريق.

– أنا يا ست فاطمة.

– نعم أنت.

– أنا لا شـأن لى بهذا يا ست فاطمة.. اعملى معروفًا.. أنا لا شأن لى.

– خذنى إلى قرب المكان واتركنى.

– أنا يا ست فاطمة.

– نعم أنت.. مم تخاف.. سـتقف بعيـدًا.. بعيدًا لن يراك أحد.

وقال حافظ:

– وتذهبين وحدك يا فاطمة.

– نعم أذهب وحدى.. يجب أن أكون بجانب ابنتى وابحثوا أنتم بعــد ذلك فى صحة الزواج أو عدم صحته.. ســأظل هناك حتى تصبح زوجة على سنة الله ورسوله أو تعود معى.. ولكنى لا أتركها وحدها أبدًا.. هيا يا عبد الغنى.

– سأقف بعيدًا يا ست فاطمة.

– نعم قف بعيدًا.

وقال الشيخ إبراهيم:

وقولى لعتريس إن إبراهيم يقول لك إن العقد باطل.. باطل.

وقال عبد الغنى:

يا عم الشــيخ إبراهيم أنت مالك.. هل أنت المفتى.. الرجل لم يســألك.. ثم المحامى.. وهو الرجل المختص قال له العقد باطل فأخذ أمواله.. مالك أنت يا عم الشيخ إبراهيم.

حق الله يا عبد الغنى.. حق الله..

لا إله إلا الله..

هيا يا عبد الغنى.

هيا يا ست فاطمة.

قال لها عتريس حين رآها:

– وأنت ماذا جاء بك؟

– ابنتى.

– ما لها؟

– ليست زوجتك.

– من قال لك هذا؟

– لا شأن لك.

– من قال لك هذا؟

– الذى قال قال، وأنت لا شأن لك.

– ومن الذى دلك على المكان؟

– لا شأن لك أيضًا.

– إذن.

– أنا باقية هنا حتى يقضى الله أمرًا..

– وماذا يمكن أن يقضى.. زوج وزوجته.

– لست زوجًا، ولا هى زوجتك!

وخرج عتريس ونادى إسماعيل الصفورى:

– أريد أن أعرف من الذى زار بيت حافظ اليوم؟

وقصد إسماعيل إلى عبد الغنى حسون:

– من زمان لم نرك يا عبد الغنى.
– مشاغل يا عم الشيخ إسماعيل.
– وما حال الدنيا؟
– رضا.
– ماذا يقول الناس؟
– البلد مشغولة بالزواج هذه الأيام.
– هل هى مشغولة به.
– لا تتكلم فى شىء آخر.
– وما رأيهم؟
– آراء مختلفة.
– وما رأى حافظ؟
– ألا تعرفه؟
– الرأى الذى أسمعه منك غير الرأى الذى أسمعه من حافظ.
– والله إن جئت للحق حافظ جاء وليس له رأى خاص وإنما هو يسمع ما يقوله الناس؟
– هل زاره أحد؟
– قليل.

– مثل من؟

– الشيخ إبراهيم. الشيخ بسيونى. هنداوى أفندى.

وقال عتريس:

– ليس بين هؤلاء من يقول إن الزواج باطل إلا الشيخ إبراهيم.. أغرق أرضه اليوم يا إسماعيل.. وبعد أن تغرق الأرض اذهب قل له إننى اكتفيت بهذا فى هذه المرة. ولكن عقابى فى المرة القادمة سيكون فظيعًا فخير له أن يسكت.

وقال الشيخ إبراهيم:

– أكل ما قدر عليه عتريس هو أن يغرق الأرض.. مثل هذا يسكتنى أنا يا إسماعيل.. والله إن انطبقت السماء على الأرض فلن أسكت.. هذا الزواج باطل وإقامة فؤادة مع عتريس اعتداء على حقوق الله. ولن نسكت..

– يا عم الشيخ إبراهيم.. إنعام فى القرية تلتقى فى كل يوم على حرام. لماذا سكت عنها؟

– هذه تجارة قديمة الله يعاقب عليها فى الآخرة. وإنعام هى التى اختارتها.. أما اختطاف فتاة من بين أهلها وتزوير إرادتها وجعل عقد زواج باطل عقدًا صحيحًا.. أما هذا فهو هدم

للحياة جميعًا وللدين جميعًا. والسكوت عليه كمن يرى جيشًا يهدم الدين وهو ساكت.

– يا عم الشـيخ إبراهيم طول عمرك رجل لم ترفع صوتك. حتى وإن اعتدى عليك. فما معنى ثورتك هذه المرة؟

– حق الله.

– إنك لم تدافع عن حقوقك ضد المعتدين.

– حقوقـى أنا حر فيها. أما حـق الله فأنا مرغم على الدفاع عنه.

– وأهل القرية جميعًا ما لهم لا يفعلون مثلما تفعل؟

– لا يعرفون واجبهم قبل الله.

– يا عم الشيخ إبراهيم إعمل معروفًا واسكت.

– قل لعتريس الزواج باطل.. باطل.. باطل.. يغرق الأرض إن شاء ويحرق المحصول متى أراد، ولكن الزواج باطل.

– يا عم الشيخ إبراهيم أنا لن أقول شيئًا.. أنا لن أقول شيئًا.

– ولكنى أنا سأقول.

– لن يبلغه أحد.

– سيصل إليه صوتى.

– لا يجرؤ أحد أن يقول له.

– سيصل إليه صوتى.. وإن أغلق آذانه فسيصل إليه صوتى.

وقال عتريس:

– ماذا قال الشيخ إبراهيم؟

فقال إسماعيل:

– لم يقل شيئًا.

وحل يوم الجمعة، وقصد أهل القرية إلى الجامع فرادى وجماعات، ودخلوا جميعهم من الباب الصغير الذى يؤدى إلى الميضأة، وما لبثوا أن ارتدوا إلى صحن الجامع والماء يغمر كل جزء غير مغطى من جسومهم، كأنهم الزرع ألقى عليه الماء فهو مخضل وفى الجو همهمة هى تسبيح بين الحوقلة والبسملة.. وبعضهم يصلى ركعتين قبل صلاة الجمعة، وبعضهم راح يحادث البعض فيما لا صلة بينه وبين الجامع والصلاة، وفى ركن قصى جلس عليوة حسيرًا ذاهلا مر به كثير من رجال القرية فحيوه. وجلس بعضهم إلى جانبه يحاول أن يسأله عما حدث له ولكنه يقول فى أسى:

– لم يحصل شىء.. كذب ما سمعتم.. لم يحصل شىء.

وينصرف عنه السائلون ذاهلين، وقد ازداد يقينهم بصدق ما سمعوه. وكلما مضى الوقت أحس الناس أن روح الله تظلهم فى مكانهم هذا وأنهم فى حاجة أشد إلى هذه الروح يوغلون فى شعورهم بالله، ويشحن الجو بلقاء واستقبال بين السماء والأرض، ويرتفع صوت المقرئ، ولم يكن جميلا، ولكن الناس أحسوا به آتيًا من السماء فتخاشعت نفوسهم واشرأبت.. أحسوا جميعهم أن شيئًا واحدًا يجمعهم لا يدرون ما هو.. أهو شىء من الإيمان.. أم شىء من الترقب.. لا يدرون.. ولكنهم فى كل الجُمع التى صلوها معًا لم يشعروا بهذا الشعور.. كان كل منهم يدخل إلى الجامع فردًا خاليًا بشىءون نفسه، ويصدر عنه فردًا خاليًا بشىءون نفسه.. أما اليوم فهم جميعًا يحسون أن شأنًا واحدًا يجمعهم، فتفكير واحد يخيم عليهم، وشعور واحد يرين على جمعهم. أصبح كل فرد منهم هو الجمع الذى يزحم الجامع وأصبح الجمع كله فردًا واحدًا. لم يقل واحد منهم للآخر شيئًا مما يخالجه، ولكن هذا الإحساس العجيب من الشعور بالتوحيد كان يجيش فى صدورهم فى نفس الوقت.. كانت عيونهم كلما التقت تعبر عن هذا التآلف الذى جمعهم فجأة. وانتهى المقرئ من قراءته ووقف خطيب الجامع فألقى

خطبته مــن كتاب معه وألقى الأدعية فكانت تهيم فى الجامع كلــه آمين متخافتــة تتواثب من أركان غيــر متجمعة ولا هى منســجمة، حتى إذا قال الإمام «اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا» تجمع الشــتيت ودوت آمين يحيط بها صوت من القلب تعرفه الأذن وتعرفه السماء.

وقبــل أن يقول الإمام أقم الصلاة. وقف الشــيخ إبراهيم من أقصى الجامع وصاح:

– يــا أيها الناس.. الزواج باطل. ولابد أن ترجع فؤادة إلى أهلها.

ومن أركان متفرقة من الجامع قالت ألسنة:

– يا عم الشيخ إبراهيم ونحن مالنا؟

– يا عم الشيخ إبراهيم اعمل معروفًا.

– أهذا وقته؟

ونظر الشيخ إبراهيم إلى المتكلمين ثم قال:

– أنــا أعرفكم جميعًا.. أنتم مــن العصابة.. نعم هذا وقته. إنما شرعت خطبة الجمعة للبحث فى شئون المسلمين.. وهذا الــذى يحدث يهم الجميع.. إنه حــق الله.. الزواج باطل.. لقد

أغرقوا أرضـــى حتى لا أقول هذا، ولكن الزواج باطل.. باطل.. باطل.. أقم الصلاة إن شئت يا عم الشيخ عبد التواب.

وقال الشيخ عبد التواب فى عظمة للمؤذن:

– أقم الصلاة.

❑❑❑

(١٧)

قال عتريس:

– اقتلوا محمود ابن الشيخ إبراهيم.

ونظر إسماعيل إلى عثمان، ثم نظر إلى عبد المعطى، ثم نظروا إلى الجاسوس الذى حمل كلام الشيخ إبراهيم إلى عتريس، ثم نظروا جميعهم إلى عتريس. ولم يحفل عتريس بنظراتهم، ولم يعن أن يعيد أمره فإن إصداره مرة واحدة يكفى.

دخل عتريس إلى حجرته مغيظًا.. وكانت فؤادة جالسة إلى جانب أمها.. الأم تقرأ القرآن وفؤادة تسمع، وقد وضعت على فمها تلك الابتسامة التى لازمتها منذ دخلت هذا البيت.. ابتسامة عجيبة كان ينظر إليها عتريس فيجن جنونًا.. جميلة هى الابتسامة حتى لتجعله أكثر رغبة فى فؤادة، فكأنها ابتسامة فيها من الاستدعاء معنى، ولكنها مع ذلك واضحة السخرية، وهى أيضًا ابتسامة يشيع فيها الاطمئنان الهادئ الواثق، وكأن صاحبتها تعيش فى بيتها الطبيعى، وبين أهلها، وخاصة عشيرتها. وهذا إلى هذا جميعه ابتسامة

ليس فيها أى افتعـــال، ولكن فيها تحديًـــا واضحًا.. ويعجب كيف يمكن لفتاة أن تجعل التحدى واضحًا فى ابتســـامتها دون أن يكون فى هذا التحدى افتعال.. إنما هو تحد طبيعى وصامت وصادق وواثق.. ويجن عتريس.

– صدق الله العظيم.

ونظرت إليه فاطمة!

– وما شأنك أنت بالله؟

– الظاهر أن موقف ابنتك جعلك جريئة.

– أنا لا أخشى إلا الله.

– لم تقولى هذا وأنا أتزوج ابنتك.

– ليس لى أنا أن أقول.. أبوها هو الذى فعل ما فعل.

– فلو كان الأمر بيدى لقلت لا.

– ألا ترى أنى أقولها الآن؟

– لأن ابنتـــك جرأتك.. رأيتها تقول لا لم أصنع لها شـــيئًا فحسبت الأمر سهلا.

– أنا متوكلة على الله.

– أما آن الآوان يا ست فؤادة؟

– أتعرف أنه لا يجوز لك أن توجه الحديث إلى أمى أبدًا.. إننـــى إذا وافقت على الزواج بك فســتذهب أمى من فورها إلى بيتها. فحديثك معها عبث لا معنى له.

– ومتى توافقين؟

– أنا لن أوافق أبدًا.

– لقد عاقبت فى القرية كل من تجرأ فقال إن الزواج باطل.

– أيجعل هذا الزواج صحيحًا؟

– كيف يجرءون.. كيف يجرءون؟

– إنهم لا يقولون رأيًا.. إنهم يعلنون حقيقة.

– ولكن يجب ألا يجرءوا.

– لماذا لم تعاقب أبا حنيفة؟

– لأنه مات.

– وما ذنب الأحياء؟

– أنهم أحياء.

– فعاقبنى أنا.

– أتظنين أنى لا أعاقبك.. لا تخافى سيأتى اليوم.

وهز عصا غليظة يحملها فى يده. وعلا صوت فاطمة:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [سورة الطارق: الآيات ١٥ – ١٧].

وقال عتريس وهو يضرب بعصاه راحة يده ضربات هينة:

– لابد أن يأتى.. سيأتى اليوم.. لابد أن يأتى.

❑❑❑

(١٨)

فرغ

طه ومحمــود من عملهما فى الحقــل، وتوجها إلى البيت، لم يلتفتا إلى رجلين يتبعانهما. وحين بلغا البيت قال محمود:

– أنا خارج.

– يا محمود لو عرف أبوك قتلك.

– ومن يخبره؟

– هذه الأشياء لا تختفى.

– يا أخى أنا حر.

– أنا أخاف عليك من أبيك.

– إن كان لا يعجبه أتركه.. أنا بذراعى آكل الشهد.

– أخاف على أبيك إن سمع.

– يا أخى أنا رجل.

– لكن ألا تخاف على أبيك؟

– يكون مخطئًا لو غضب.

– أنت تعرفه.

– يكون مخطئًا لو غضب.
– يا محمود كفى.
– ماذا.. هل ستعمل لى شيخًا أنت الآخر؟
– أرجوك.. طيب لا تذهب الليلة فقط.
– إن لم أذهب الليلة فسأذهب غدًا.
– ابق هذه الليلة فقط.. أرجوك.
– لا شأن لك بى.
– أرجوك.
– دعنى.
وعند بيت إنعام قال أحد الرجلين للآخر!
– مرة أخرى ننتظر هنا.
– نعم ولكن شتان بين المرتين. كنا فى المرة الفائتة ننتظر لنحرس أما الليلة..
– ولكنه مكان ثقيل للانتظار على كل حال.
– لعل انتظارنا المرة الفائتة كان أثقل.
– على كل حال هو مكان ثقيل للانتظار.
– وهذا العمل الذى نقوم به.. أليس ثقيلا؟
– أتراه كذلك؟

– ليس أنا الذى يراه وحدى.
– فمن أيضًا؟
– كثيرون منا.
– كثيرون؟
– كثيرون.
– فما الذى يجعلنا ننتظر؟
– حتى يصبح الرأى رأى الجميع.
وقال محمود:
– كيف الحال يا إنعام؟
– نحمده يا «أبو حنفى».
– يا ترى فكرت فيما قلته لك.
– لا.. أنا لا أفكر فيه أبدًا.
– لماذا.. أنا أحبك يا إنعام.
– ورشدى كان يحبنى.
– ولكننى شىء آخر.
– لماذا يظن كل إنسان أنه شىء آخر.
– أحسُّ بذلك.
– ولماذا تحس بذلك؟

– أحس أنك تحبيننى.
– ما الذى جعلك تحس بهذا؟
– أشعر بهذا.
– أعرفت كيف ألقى غيرك حتى تقارن.
– لا تذكرينى بالآخرين.
– أنسيتهم.
– أحب أن أنساهم.
– إذا تزوجنا فستنسى كل شىء، ولا تذكر إلا الآخرين.
– أبدًا.
– يتهيأ لك.
– جربى.
– لا أجرب أبدًا.
– جربى.
– اسمع يا محمود.. أنت أول واحد يعرض على هذا العرض، ولهذا فأنا لا أريد أن أغشك.
– لا شأن لك.. اقبلى ولا شأن لك.
– أخاف من نفسى يا محمود.
– اقبلى ولا شأن لك.
– سأفكر.

– هذا كل ما أرجوه.. فكرى.
– لا أضمن نفسى.
– فكرى..واعلمى أنى أحبك.. وفكرى.
– ما الذى تريده بالزواج منى؟
– ألا تعرفين؟
– الحقيقة.. لا.
– أريدك لى وحدى.
– وكيف تعرف أنى سأكون لك وحدك؟
– لا تقولى هذا.
– أنت تخاف من مجرد الفكرة. فكيف إذا تزوجنا وفكرت فيما كان أو عيرك واحد من القرية.
– لا نقيم هنا.
– أيمحو هذا الماضى.
– يمحوه.
– سـنحمله معنا أينما ذهبنا.. إنه فى داخلنا يا محمود.. لا نستطيع أن نتركه فى أى مكان.
– نقتل هذا الماضى.
– إنه لا يموت.. حتى إذا متنا نحن فإنه لا يموت.
– ألم تقولى إنك ستفكرين.

– ألست أفكر الآن.

– فكرى وحدك.

– إذا كانت هذه هى أفكارى وأنت معى. فكيف إذا تركتنى لها وحدى.

– ألا أمل إذن؟

– لا أدرى.

– أنــا قادم غدًا.. وكفانى لا أدرى هذا أملاً أنام به ليلتى.. هل آتى فى غدى؟

– أنت تعرف أن باب بيتى لا يقفل.

– لا تقولى هذا.

– لا تخف أنت من الحقيقة.

– لا تقوليها.

– لا يغير قولها شيئًا.

– فقط لا تقوليها.. أنا ذاهب وقادم فى غد.

– أهلا بك.

وخــرج وانفجرت فى فضــاء القرية طلقة ناريــة وأعقبها صمت.

❑❑❑

خرج الشيخ إبراهيم من بيته وكلما لقى أحدًا قال له:

– قولوا له الزواج باطل.. مهما يقتل ابنى فالزواج باطل.

وما يسمعه أحد إلا أشاح عنه فى خوف مذعور وأسى عميق ولقيه عبد الغنى حسون فأمسك به:

– قــل له الزواج باطل.. قتــل ابنى لا يصحح العقد.. العقد باطل.. باطل.. باطل.. قل له.. قله لمن يبلغه.

– يا عم الشيخ إبراهيم أنا لن أقول شيئًا.. لن أقول شيئًا.

– لقد عشــت طول عمرك تقول لماذا لا تريد أن تقول هذا.. إنها كلمة حق ألا تقول حقًا؟

– يا عم الشيخ إبراهيم. أما كفاك ما جرى؟

– ما شأن هذا بحق الله؟

– يا عم الشيخ إبراهيم لماذا تعرض نفسك لهذا جميعه؟

– الزواج باطل.

– ولكنك وحدك تعرض نفسك لهذا الدمار.

– حق الله أحب إلى من حياة ولدى.

– كفاك يا عم الشيخ إبراهيم.. كفاك.

– إذن فلن تقول له.

– لن أقول شيئًا.

– ولن تجعلنى ألقى من يقول له.
– ولن أفعل هذا أيضًا.
– إذن فسأقول أنا.

ومضى الشيخ إبراهيم إلى دكان عبد الملاك فاشترى إصبعًا من الطباشير ومضى إلى حائط الجامع البنى اللون الأملس وكتب عليه فى حروف ظاهرة قوية «زواج عتريس من فؤادة.. باطل.. باطل..».

وتجمع حوله وهو يكتب بعض نفر أخذ عددهم يزداد وراحت الوجمة الآخذة تتجمد على وجوههم.

وحين فرغ من الكتابة وقع باسمه إبراهيم علام ومضى يهيئ ولده ليشيعه لمثواه الأخير. ولكن الباحة التى أمام الجامع ما لبثت أن امتلأت بالناس وكانوا صامتين، ولم يبرحوا الباحة إلا حين مرت جنازة محمود، ووجدوا أنفسهم يسيرون فيها دون وعى.

* * *

حين علم عتريس بما كتبه الشيخ إبراهيم دخل إلى حجرة فؤادة ثائرًا:

– أليس لها آخر؟

وقبل أن تجيب أهوى على رأسها بعصاه الغليظة فانهارت فؤادة وهى تقول:

– ولكنى لا أموت.

وارتمت أمها بجانبها تنادى اسمها فى ثورة، وهم عتريس أن يبرح الغرفة، ولكنه وجد الطريق مسدودًا أمامه.

كانت عيون الرجال تغلقه فلا سبيل له.. ونظر إليهم مذهولا أول الأمر، ثم حين تبين ما فى عيونهم ما لبث أن غشيته غاشية من الخوف المذعور الراجف، ولم يقل شيئًا، ولكن أحد الرجال قال فى حزم:

– فؤادة تذهب إلى بيت أبيها.

واستجمع عتريس أشلاء نفسه ليقول:

– أتجرؤ؟

ولكن الصوت عاد يقول له فى حزم ثابت هادئ:

– فؤادة تذهب إلى بيت أبيها.

– سأقتلكم جميعًا.

وجاءه الصوت مرة أخرى:

– إننا نحن الذين نقتل.. فؤادة تذهب إلى بيت أبيها.

وحملت فاطمة فؤادة بين ذراعيها وانفسح الطريق أمامها خرجت ونكس عتريس رأسه فى استسلام وحين رفع بصره لينظر الطريق الذى سارت فيه فاطمة بفؤادة وجد الطريق وقد أغلقته العيون مرة أخرى.

❑❑❑

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

– داخل جمهورية مصر العربية ٩٦ جنيها.

– الدول العربية واتحاد البريد العربى ١٢٠ دولارا أمريكيا.

– الدول الأجنبية ١٣٠ دولارا أمريكيا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدما نقدا أو بشيكات.

بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل – ماسبيرو – القاهرة.